الفصل الرابع

الرد على «سيديو» ، «لامانس» وآخرين ..

- مزاعم سيديو : فى القصاص وشدته .
- مفتريات لامانس .
- الرد على مستر كاش ـ والقتل السياسى .
- شبهات كارليل ـ سر التكرير فى القرآن .
- شبهات المستر فرانك فوستر : أمية الرسول ـ وتعدد زوجات الرسول ـ ومقابلة أهل الكتاب .
- محمد خاتم المرسلين ـ الرد على المنكرين .
- خاتمة .

obeikandl.com

● لماذا القصاص لا التسليم المسيحى ؟

تحدث « سيديو » عن الاسلام ونصيب الأخلاق فى تعاليمه ، فذكر دعوة النبى للأخلاق « **وانك لعلى خلق عظيم** »(١) ، « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (**حديث**) .

ثم قال : « بيد أنك لا تجد فى القرآن ـ ما فى الانجيل ـ من التسليم الذى يفيد كثيرا عند الشدائد ، فترى محمدا يأذن ـ بين كثير من التناقضات ـ فى مقابلة السيئة بالسيئة ، كأن الناس لم يكونوا مستعدين لهذا من قبل . و « محمد » حين يقول بمبدأ القصاص الذى رضى عنه اليهود ـ مع ذلك ـ يكون قد ساير أحكام زمانه وقومه » .

● القصاص لا يتنافى مع الخلق :

يعنى سيديو بما فى الانجيل من التسليم قوله « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ونحن لا نسلم لـ « سيديو » قوله : « ان هذا يفيد عند الشدائد » . انه يفيد طبقة المستبدين المتسلطين ، وهذا هو ما جعل الشيوعيين يصفون دين المسيحية بأنه مخدر للشعوب .. وهذا أمر يضمن مؤقتا سكوت المظلوم الضعيف ، ولكنه عندما يجد الفرصة للثأر والانتقام اهتبلها ليثأر بطريق العنف المستعلن ، أو بطريق الاختلاس أو التآمر المتوارى . والنار المستعلنة يحذر الناس شرها فى استعلانها . أما اذا كانت متوارية تحت الرماد والناس عنها غافلون ، فقد تكون آثارها وخيمة ، تدمر كل شىء أتت عليه فى غفلة عن أمرها .

فالرغبة فى القصاص واقامة العدل فطرة ، ومطالبة الناس بما يخالف الفطرة ـ دون بديل قائم على الرغبة فى المخالفة . مطالبة بالمستحيل .

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار

---

(١) القلم : ٤

وقد جاء القرآن بما يحفظ للمرء كرامته دون أن يجنى على العدالة . فشرع القصاص ولكنه ترك للنفس المتسامية ـ أو القادرة على التسامى ـ الباب مفتوحا لترتفع عن أخذ حقها فتعفو عن المسىء ، ولم يجهل القرآن الفوارق الفردية بين الناس واختلاف الطبائع ، فجاء بشريعة تحمى العدل ، وتنمى الفضائل الخلقية ، وتعين على السمو الروحى ، « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** »(٢) ، وذلك هو القانون العام ، ثم أعقبه بالمثل الأعلى فى خطابه للرسول « **واصبر وما صبرك الا بالله** »(٣) ، وهو ليس أمرا خاصا بالنبى ، ولكنه عليه السلام الأسوة « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** »(٤) .

فليس هناك تناقض كما زعم سيديو فى نصوص القرآن وأفعال الرسول . انما التناقض يكون فى الدعوة الى أمرين معا . اما هنا فالدعوة الى مبدأ واحد متكامل الأجزاء . وهو التسامى بدرجته الاولى عن الشراهة فى الحصول على حق القصاص ، والتسامى بدرجته الثانية بالعفو وهو الأمثل :

(أ) « **النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** »(٥) .

(ب) « **فمن تصدق به فهو كفارة له** »(٥) .

وليس التصدق الزاما واجبارا ، وانما يأتى طوعا واختيارا .. هذا فضلا عن أن الرسول كان مثلا عاليا فى الحلم ، ولكنه لا يضع الندى موضع السيف ليفسد الحياة ، فالعفو والعقوبة كلاهما عمل استصلاحى فى أيدى الحكماء .. وقد جعلتهما شريعة الاسلام حقا فى يد المسلم ليفعل الأمثل منهما .

وأما أن محمدا فى تشريع القصاص ساير أحكام زمانه وقومه فمغالطة فاحشة أراد بها سيديو الايحاء بأن شريعة الاسلام امتصاص نظام قائم ، وبلورة له .

---

(٢) النحل . ١٢٦ (٣) النحل : ١٢٧
(٤) الأحزاب : ٢١ (٥) المائدة : ٤٥

وقد كرر هذا المعنى غيره من المستشرقين فى صورة أخرى فى اطار مدح وثناء فقد قال جونسون فى كتابه « الديانات الشرقية » :

« ان التجاوب الطبيعى بين نظرة محمد الواسعة الى الذات الالهية، وبين الجو الفسيح الذى كان يغدو ويروح فيه .. هو التفسير الوحيد للهدوء ورباطة الجأش العجيبين اللذين استقبل بهما المشاهد الهائلة التى رآها .

وليس بمستغرب أن تخرج أعظم قوة فى ذلك العصر من فلوات الجزيرة العربية التى كانت الأمم حولها فى مد وجزر . فقد كانت الصحراء على الدوام هى المكان الذى انبعثت فيه صيحات الأنبياء الذين جاءوا من عند الله ، وقد أضفى المسيح على الجزيرة العربية معنى رمزيا حين أوى الى البرية لما جاءه ربه الذى ليس كمثله شىء ، ولكن محمدا جعل هذا الرمز حقيقيا ، فقد كانت الجزيرة العربية نفسها هى رجل الساعة ، وكان نبى الاسلام كلمتها الجامعة ، اذ أفضت الصحراء بذات صدرها الى ابنها الفذ الذى تحلى بتقاليدها الرفيعة ، ودفعه واقع باطنى قاهر الى الخلوة فى ليلة طلعت فيها النجوم وهى تصغى الى حديثها دون أن ينبس ببنت شفة »(٦) .

فالجميع يحاولون رد شريعة الاسلام الى البيئة والجزيرة والدوافع الاجتماعية وغيرها ، وهذا منطق منكرى الأديان ومنطق المبشرين والمستشرقين الذين يريدون النيل من الاسلام خاصة بنزع ثوب قداسة الوحى عنه . وجعل القرآن بشرى المولد والطبيعة . وقد رددنا على هذا فى مكان آخر . ولكن الذى نريد دفعه الآن هو دعوى مسايرة القرآن لعصره ولرغبة اليهود . فلقد ساير القرآن الصالح العام فى عصره وغير عصره ، دون التفات الى رضا المجتمع والزمان . فلقد جاء قوم يطلبون من النبى ﷺ أن يحط عنهم بعض أحكام الشريعة كالزنا طلب اسقاطه قوم ، وقطع يد السارق طلب قوم اسقاطه عن فاطمة المخزومية ، والرجم طلب اليهود أن يستبدل به تحميم وجه الزانى والتشهير ، وقامت حروب الردة من أجل الحفاظ على الشريعة بكل مبادئها .. فكيف يقال : ومع ذلك يكون محمد

---

(٦) محمد رسول الله هكذا بشرت الأناجيل ص ٥١

قد ساير أحكام زمانه وقومه ؟ ! . هذا جهل فاضح بالتاريخ ، أو تجاهل مزر بالحقيقة الجلية .

واما قول جونسون . فمقطوعة فنية من الخيال ، وفى عالم المنطق استدلال شاعرى أو خطابى لا يصح دليلا للحقيقة .. فلو كان الموضوع موضوع صحراء لكانت الصحراء الكبرى بأفريقيا أو صحراء كاليفورنيا مصدرا لأنبياء ومرسلين .. ولو كان الأمر بلورة مبادىء وتقاليد رفيعة للصحراء لكان الحكم فى رفعة هذه التقاليد الى الصحراء . بما فيها من غارات واباحية وهرب من المشكلات المعقدة بالخمور .. ولم يكن بمحمد من هذه الصفات الصحراوية شيء .

* * *

obeikandl.com

مفتريات لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧)

● **من هــو لامانس ؟**

هنرى لامانس قس يقطن لبنان . بلجيكى المولد فرنسى الجنسية . من أوائل علمــاء الجامعة اليسوعية ببيروت ، وقد درس اللاهوت فى انجلترا وتولى ادارة التبشير فى بيروت ، وله عدة مؤلفات فى تاريخ العرب والسيرة والاسلام . ووظيفته المعيشية تجعلنا نصم الآذان عن كلماته ، ولكننا نذكر بعض آرائه الشاذة لنعرف كيف يتجه أولئك المستشرقون .

١ ـ نفى شجاعة النبى والعرب :

نفى الشجاعة عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام **وعن العرب** عامة . ولا شك أنه تصدى لانكار ضوء الشمس وقديما قال الشاعر :

* لا ينكر الشمس الا من به رمد *

وأى شــجاعة أعظم من أن يتحــدى النبى كل القوى التى تحمى الوثنيات والأنظمة الاجتماعية الفاسدة فى العالم ؟ لقد كان يقود المعارك ويديرها ويتقدم الصفوف ، ويتصدى لمــا يتصدى له كل صنديد شجاع . وحسبنا قول على بن أبى طالب : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ . فما يكون أحد أقرب الى العدو منه » .

« وقد ثبت فى موقعة حنين ثبات البطل الغلاب ، ولم يثنه أن رأى أكثر من معه يلوزون بالفرار من مباغتة الأعداء المتربصين لهم فى ظلمات الليل بالمضايق والشعاب . نعم فى ذلك المــأزق المبيد ذعر المسلمون وتفرقوا يطلبون النجاة . لكن النبى ثبت فى مكانه ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وهو يقول : « أيها الناس تعالوا الى . أنا رسول الله . أنا محمد ابن عبد الله » . لكن صيحته هذه كانت لا تسمع فى ضجة الفرار وجلبة الاضطراب . فأمر عمه العباس أن يستصرخهم فاجتمع اليه مائة ، استبسلوا وقاتلوا مع رسول الله حتى تم له النصر(٧) وموقفه يوم أحد اذ صاح قائلا والهول من حوله والعدو يطلبه :

---

(٧) البطــولة والأبطــال لأحمــد الحوفى ص ٣٢ ، ٣٣ ط . نهضــة مصر .

أنا النبـــى لا كـــذب أنا ابن عبـــد المطلب

وأما شجاعة العرب فحسبنا دليلا على أنها طبيعة فيهم هذه الفتوح الاسلامية التى خرت عروش الروم والفرس والحبش أمامها مستسلمة . وفى الجاهلية ما تنسى الفرس يوم ذى قار ، ولا نسى الفرس والروم معا انهم أقاموا من دولتى غسان والحيرة العربيتين متاريس حين عجزوا عن لقاء العرب اذ آمنوا انه لا يفل الحديد الا الحديد . ولكن « لامانس » أراد تحقير شأن العرب اغراء للكلاب بهم . أو كتعبير الانجيل : للخراف الضالة .

* * *

٢ ـ هل كان النبى أكولا ؟

ووصف النبى بأنه أكول .. وذلك خلاف الواقع ، لأمور :

أولاها : أن النبى ﷺ ذم الذين يأكلون أكثر مما يكفيهم . ولامانس يريد أن يصور النبى فى صورة الدجالين الذين يقولون ما لا يفعلون . وكأنه يصور حاله الشخصية لا حال النبى . فان عائشة رضى الله عنها قد صح عنها انها قالت : « كان يأتى الهلال تلو الهلال تلو الهـــلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين . ما يوقد فى بيت رسول الله نار » . وسئلت : ماذا كان عامة طعامه ﷺ هو وأهل بيته ؟ فقـالت : الأسـودان . . التمر والمـاء .. ومن كان هـذا شأنه فليس أكولا . وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام وهو المتواتر نبأ صدقه : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع » ، وانما ابتغى الكاتب بقالته هـذه أن يشكك فيما جاء به النبى ، بشريعة الاسلام ، عن الجوع أو الاعتدال فى الطعام والشراب وفضيلة ذلك ، وليشكك فى الصيام الذى دعا اليه ، وعمل به فقد أثر عنه أنه كان كثير الصيام . فيصوم فوق رمضان ستا من شوال والثلاثة الأيام البيض من كل شهر (١٣ ، ١٤ ، ١٥ من الشهر العربى) وأيام الاثنين وكثيرا ما صام الجمعة ، وأخبرتنا عائشة أنه كان ربما أتى اليها ضحوة فسألها : هل عندك من طعام ؟ فان قالت له : لا ، قال : اذن نصوم . وقد أثر عنه : « جوعوا تصحوا » ، كما أثر عنه « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » . وقد أجمع المؤرخون

والمخالطون له عليه الصلاة والسلام على أنه كان المثال الكامل لما يدعو اليه :

والعجب أن المستشرق « بنيه سنغله » يرى نقيض قول لامانس ، فيزعم أن النبى مات نتيجة كثرة صيامه وجوعه ، لا التخمة ولا الالتهاب الرئوى الذى زعمه المستشرق كليمان هيار .

* * *

٣ ـ هل كان النبى يكره الوحدة ؟

وزعم أنه عليه الصلاة والسلام كان يكره الوحدة التى هى قوام رهبنته المفضلة .

ويتناسى « لامانس » المتفق عليه من أنه عليه الصلاة والسلام كان فى مكتمل شبابه قبل البعثة يخلو الى نفسه فى غار حراء وحيدا .. ويتجاهل ما روى من اعتكافه فى المسجد كثيرا ، وأن طبيعة دينه الذى يدعو الى التفكير فى خلق السموات والأرض ، ومصالح المسلمين تفرض لتحقيقها توفير وقت يخلو فيه المرء الى نفسه ، وأنه من أجل الاستجمام الروحى والعقلى والوجدانى الذى لا يتم مع ضجيج المخالطة نزلت الآية التى توفر له ذلك « **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق** »(٨) والذى يكره الوحدة لا تؤذيه هذه المخالطات المستمرة . ومن أجل توفير وقت يخلو فيه الى نفسه ومن أجل تخفيف زحمة اللقاءات به ربما كان نزول الآية « **اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** »(٩) لتكبح جماح سيل الزوار والخلطاء .

* * *

٤ ـ هل كان النبى نؤوما ؟

ويصف لامانس النبى بأنه كان نؤوما . ليوهم أنه كان على غير ما نزل الله عليه «**ومن الليل فتجهد به نافلة لك**»(١٠) ، « **يا ايها المزمل . قم الليل الا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن**

---

(٨) الأحزاب : ٥٣ (٩) المجادلة : ١٢ (١٠) الاسراء : ٧٩

ترتيلا »(١١) . ومن المعلوم أنه كان يقوم الليل ويقوم أصحابه معه بقيامه حتى أحس أنهم يفعلون فعله هذا فصرفهم وقال : « خشيت أن يفرض عليكم ذلك » .. وقد سجل القرآن هذا النمط من العبادة الليلية فقال : « **ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** »(١٢) ، وتلقى عصره هذا الخبر بالتسليم فلم ينكره أحد .. والدعوات الشابة تكون تحت المجهر دائما . فأى بيان كاذب يبرز فى صورة شنعاء فى صفوف المعجبين والحاقدين على سواء .

بل ان هذه الصفة تتنافى مع طبيعة هذا الدين الذى يجعل من قيام الليل شريعة لازمة لبناء الداعى الى الله والسالك الجاد على جادة الجنة .. وهى أبرز سمات التقى « **ان المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم ، انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون** »(١٣) ، « **انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون** »(١٤) . فكيف يكون هذا طابع المؤمن التقى من أهل الجنة ولا يكون النبى الرائد كذلك ؟ لقد وصفت عائشة وهى أقرب الخلطاء منه حياته عليه الصلاة والسلام وأخلاقه فقالت فيما يرويه البخارى : « كان خلقه القرآن » ولا يمكن أن ندع صفة القرآن للنبى لمفتريات خصم ليس له على زوره بينة . بل ان منطق الحياة يصفع زوره ، اذ لا يتصور معه رجل كرسول الله يحيا فى محيط خصومات عاتية من الفرس والروم ومشركى العرب ثم يدع دفة سفينته بين الموج اللجى لينام . وهل ينام انسان فى الغابة ، أو فى بحر يقصف بشراع سفينته الرياح ؟ .. ان عوام الناس يدركون من بدهيات الحياة أن الجائع والخائف لا ينامان . وكان رسول الله ﷺ فى معظم أحواله جائعا . وفى مقام الخوف الذى انتقده من هوله المذهل ايمانه وشجاعته .. ان الرجل المشغول بجسام الأمور يبيت وهذه

---

(١١) المزمل : ١ ـ ٤ (١٢) المزمل : ٢٠

(١٣) الذاريات : ١٥ ـ ١٨ (١٤) السجدة : ١٥ ، ١٦

الأمور تلاحقه فى نومه .. فكيف الأمر ورسول الله يؤسس مجتمعا جديدا لبناء شامخ يضم البشرية كلها ؟ ان صح لنا أن نحلل تحليلا نفسيا الرجل من كلماته فاننا نقول : ان رسول الله ﷺ كان مشغولا بدعوته الى الحد الذى لا يهنأ له معه نوم . بل تلاحقه متاعب رسالته فى نومه . وذلك هو ما توحى به عبارته المعروفة « تنام عينى ولا ينام قلبى » .

وأن أردنا تحليله النفسى من تصرفاته لقلنا : ان الرجل النؤوم يغط فى نومه لا يأبه بشىء حوله . أما غيره فيهب من نومه لأقل نبأة(١٥) وينهض فى نشاط من فراشه ، وقد ثبت أنه كان اذا سمع صريخ بالمدينة ، وهب القوم لاغاثة الصريخ . وجدوا رسول الله قد سبقهم لانقاذه ، وآب بعد أن أدركه فردهم من الطريق . لقد نهض لأول همسة صياح نشيطا . فأدركه على فرس أبى طليحة ثم رجع .. ولما يصل القوم مكان الصريخ(١٦) . وما لهذا دلالة نفسية الا أن الرسول بلغة المصريين كان « نومه خفيفا » وقليلا .. والا فمتى كان النبى يصرف أمور « دين ودولة » ولما تستكمل الدولة قوانينها ولا الدين شرائعه .. اذا كان نؤوما .. ؟

* * *

٥ ـ انتقاص أعلام الاسلام وأمهات المؤمنين :

وينتقص لامانس أعلام الاسلام كالخلفاء الراشدين وامهات المؤمنين ليرى القارىء فشل الاسلام فى التربية . بينما يذكر المرتدين والمنافقين فى صورة أحرار عمالقة وطنيين حتى انه ليبدو « ناصبيا » حين ينتصر لبنى أمية ضد الشيعة الى الحد الذى أثار عليه المسيو « كازانوفا » وحمله على التطرف المناقض فى كتابه « محمد وانتهاء العالم » الذى ناصر فيه الشيعة وهاجم الأمويين ، وكلاهما منحرف فى تعصبه . وسبق بيان الحق فى هذا عند تحدثنا عن تزوير الحقائق التاريخية .

* * *

---

(١٥) الصوت الخفى . أو صوت الكلاب .
(١٦) رواه انس : المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

٦ ـ مهاجمة التوحيد فى القرآن :

ويهاجم لامانس التوحيد فى القرآن الذى يجحد التثليث فيقول : « **ولا تقولوا ثلاثة** »(١٧) والقرآن فى دعوته الى التوحيد منطقى ، قال الله سبحانه « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** »(١٨) . ثم قطع الحجة وشبهتها على المتشككين فى الوحدانية فقال : « **أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم** »(١٩) .

ولماذا يكون مع الله ثان وثالث . التكون هذه الآلهة مخلصة للانسان من خطيئته كما يقول النصارى والوثنيون من قبلهم فى العالم ؟ ولماذا لا يكون هنالك الدين الذى يرشد الناس الى الصواب ويقيم النظم والتعاليم التى يصان بها المرء عن الخطيئة ، أو يتطهر منها ان التاث بها ؟ . ان هذا هو ما جاء به محمد ﷺ وكما قال احد النصارى الذين أسلموا :

« ولما كان كل كائن يستطيع الوصول الى الكمال اذا التزم السير على نهج خاص . كذلك الانسان يستطيع فى هذه الحياة أن يبلغ غاية الكمال الروحانى كما بلغ غاية الكمال الجسمانى اذا سار على هذا النهج . وما هذا النهج سوى الدين ، وانى أعتقد أن العالم الآن قد أصبح أرجح رأيا من أن يسلم بأن نظرية الاله الغضبان ، واسترضاءه بتقديم القرابين تصلح أساسا للدين . وسببا لوجوده . لقد شبع الناس من كباش الفداء هذه . وانما الرأى الذى تقبله العقول أن يكون ارتقاء الانسان من الحيوانية الى الروحانية هو الغرض الوحيد الذى ترمى اليه الأديان . والمبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء .

« ولا ريب أن بلوغ هذه الغاية السامية لا يمكن أن يتم بسحر ساحر ، بل لا بد من المجاهدة والمكابدة تحت ارشاد القدوة الكامل الذى يحيط بدقائق النفس الانسانية . وما يحيط بها الا رسول من الله حقا ، ولست أستطيع أن أفهم غرضا آخر يبعث الله الرسل من أجله .. ومحمد معلم الانسانية الكامل جاء بما يرفع الانسانية من درك الحيوانية الى مرتبة

---

(١٧) النساء : ١٧١ (١٨) الأنبياء : ٢٢

(١٩) الأنبياء : ٢٤

الروحانية ، وأرشدهم الى الوسائل المؤدية الى اعلاء الميول النفسية الأساسية كالغضب والشهوة وما اليها ، الى الأخلاق الربانية . الحق أن محمدا ﷺ يعالج هذه المسألة من كافة وجوهها ، ويعالج كافة الميول النفسية سواء منها ما كان محمودا ، وما كان مذموما . ويرشدنا الى الخير لنفعله ، وينهانا عن القبيح لنتجنبه . الأمر الذى لا مثيل له فى أى دين من الأديان(٢٠) .

« لا يقف بنا محمد ﷺ عند هذا الحد بل يضع أمامنا النموذج الذى يراد أن نطبع أنفسنا على غراره . ولقد أتى على الانسان حين من الدهر كان يعتقد أن القول بأن الله « خلق آدم على صورته » أشبه باللغز المعمى ، ولكن النبى ﷺ وضح هذه العبارة حين أمر أمته أن يتخلقوا بأخلاق الله ، وبذلك لخص الغرض الأكبر من هذه الحياة الدنيا . فالانسان قد خلق على صورة الله من حيث الروح ، وبقى عليه أن يأخذ من أوصافه تعالى ما يناسبه . وهذا يتطلب معرفة الله تعالى بالقدر الذى يستطيع العقل المحدود أن يدركه من غير المحدود .. والقرآن يصرح بأن الله تعالى **«لا تدركه الأبصار»** ، ولكنه يذكر بعض الصفات الالهية التى يمكن أن يدركها العقل البشرى والتى تصلح أن تكون لنا مثالا نحتذيه فنطبع أخلاقنا على غراره ، فيحدثنا عن تسعة وتسعين اسما فقط من الأسماء الالهية ... تتضمن بعض الأوصاف التى يستطيع المتخلق بها أن يكون ربانيا .

« ومن ذلك يتبين أن النبى ﷺ قد عرف الخلق بالحق على قدر ما تطيقه عقولهم ، وهذه المعرفة قوامها الاستدلال بآيات الكون ، وادراك الصفات الجميلة التى يمكن أن يتصف بها البشر . وقد كان اله اليهود الها قاسيا لا يحب العفو ، ولا يعرف الشفقة فى تنفيذ أحكامه ، ولا تأخذه رأفة بأعداء شعبه . ولم تكن آلهة الأمم الأخرى أقل من اله اليهود قسوة ، فقد كان دخان القرابين على النار ، ودماء البهائم على المذابح تملأ

---

(٢٠) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

خياشيمهم فتتلمظ لها شفاههم ، وتقر بها عيونهم ، وكان جميع الآلهة فى الشرق والغرب من هـذا الطراز ٠

« ولا ريب أن عيسى عليه السلام جاء ليخفف من حدة القسوة التى كان الناس ينسبونها الى مقام الألوهية ، فكان يسمى الله اباه ، ليشعرهم بأن العلاقة بين الله وعباده تشبه علاقة الوالد بولده ، ولكن هذه الفكرة الجميلة أفسدها رجال الكنيسة ، فجعلوا الأب الودود أبا غاضبا حانقا لا يعفو عمن أساء اليه ، ولا يفترق فى شىء عن اله اليهود الذى لا يرحم ولا يلين ٠ وأضفى النصارى على « الأب » فى أسماء صفات المألوهـات الوثنية ، فشبهوه بـ « زيوس » الذى كان يرسل أبناءه لتسفك دماؤهم تكفيرا عن خطايا غيرهم ٠

« هـذه الفكرة لم تشوه جمال الرسالة التى جاء بها عيسى فحسب ، بل أعطت صورة شائنة عن الأبوة ٠ أب لا يعفو عمن أساء اليه ، ولكن يقتل أفضل أبنائه ليخلص غيره من أبنائه الأشرار ٠

« أما محمد ﷺ فيعطينا صورة عن الألوهية تفوق كل ما نقدمها جلالا وجمالا ٠ فاله محمد هو الله « **رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين** »(٢١) ٠ وفى هـذه الصفات الأربع تتلخص سائر الصفات المذكورة فى القرآن »(٢٢) ٠

* * *

● **الغرض من التوحيـد :**

« يقرر محمد ﷺ التوحيد بقصد اصلاح الناس وتهذيب نفوسهم ٠ فالانسان هو خليفة الله فى أرضه ، ونائبه الأعظم لتحقيق الغاية العظمى من الوجود ، ولمـا كانت هذه الغاية لا تتحقق الا على نهج خاص هو الذى تدل عليه الأسماء والصفات الالهية وجب أن تكون أفعال الانسان وصفاته على مثال الصفات الالهية حتى تتحقق الغاية المنشودة على الوجه

---

(٢١) الفاتحة : ٢ ـ ٤ ٠
(٢٢) المثل الأعلى فى الأنبياء : ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ٠

الأكمل . وبهذا المعنى يجب أن نموت ونحيا على التوحيد . وهذا هو المراد بصبغة الله المذكورة فى القرآن . فيجب أن نستعمل عقولنا فى تدبير عالمنا الأصغر ـ وهو الجسم البشرى ـ كما يدبر الله (العقل الأعظم) (٢٣) العالم الأكبر ، اذ نحن متعاونون مع المدبر الأعظم بوسائلنا المتواضعة ، وبناء عليه يجب أن نسير معه .

وبذلك يضاعف النبى الكريم من اهتمامنا بالدين . فليس القصد من الدين هو حسن المآل بعد الموت أو الدخول فى جنة الفردوس . بل القصد منه هو أن نعمل فى كل لحظة من لحظات حياتنا على تحقيق الغاية الالهية . التى هى فى الحقيقة غايتنا . وهذه النظرة الجديدة الى الدين غيرت معنى العبادة تغييرا كليا . فلم تصبح العبادة مقصورة على انشاد الترانيم والصلوات . اذ أن هذه وسيلة الى غاية . بل صارت تشمل العمل على اخراج المواهب والقوى الكامنة فى الانسان وفى الوجود من حيز القوة الى حيز الفعل . وقد تجلى هذا المعنى فى أول ما أمرنا الله به فى قوله « **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** »(٢٤) .

* * *

٧ ـ سر الاعجاب بمحمد :

قال لامانس فى كتابه « مهد الاسلام » : « كان محمد رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوى الذى كان يرى فى شخص محمد النبى العربى ـ كما يدعوه القرآن ـ وفى هذا التفاعل ، أو فى هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته نجد أولا وقبل كل شىء السر فى هذا السلطان الضخم الذى كان لمحمد على مواطنيه » .

---

(٢٣) كلمة العقل الأعظم عبارة المستشرق غير سائغة شرعا .

(٢٤) أندادا : شركاء ـ والمفرد ند ـ والآية من سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢

ما أتفه هـذا الرأى . لقد كانت الجزيرة العربية تعج بآلاف مثل النبى يمثلون شخصية العربى ويحملون سماته فلماذا لم يكن لكل هؤلاء من تقديس العربى ما كان لمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ وأى مطابقة تامة هـذه التى يزعمها لامانس بين النبى وبيئته ، لقد كان على النقيض فى كثير من الأحيان مع البيئة فهو لا يسجد لأصنامها ولا يشرب الخمر ولا يفخر بمال ولا حسب ، وقد استهجن « ستوك هرفونجه » أسلوب التهجم الصارخ على الحقيقة فقال فيما يرويه الأستاذ زكريا هاشم : ان سيرة « محمد » الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق . هـذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلوا الى نتائج ـ ولا شك ـ خاطئة ، فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا بالأمر الهين . ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر ـ لا ريب ـ مستحيل .

على أن دراسـة المبتدعات التى دخلت عن هذا الطريق فى تاريخ النبى قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت أحيانا وليدة كراهية شديدة للاسلام (كما هو الشـأن فى كل ما كتب القسـيس لامانس أو القس زويمر) . اذ يصعب التوفيق بينها وبين العلم . ولا تليق بعصرنا هذا . كما أنها على العموم . مع ما فيها من احاطة ـ نظرية بحتة ـ تسجل على مؤلفيها جهلا عجيبا بعادات العرب . وانه ليكفى فى اظهار زيفها أن نقارن بعضها ببعض ، لأنها على تناقض ، بحيث ينسخ بعضها بعضا . وأخيرا فان غلوها فى الخيال . فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية ليظهر بأجلى بيان صدق تلك الآثار المـاخوذ بها فى العالم الاسلامى .

* * *

٨ ـ الغرض التجارى فى غزوتى بدر :

قال الأب لامانس : « لقد كانت غزوة بدر الأولى والثانية أقرب الى الحملات التجارية منهما الى الحرب اذ كان المسـلمون يحملون معهم

تجارتهم للعمل فيها بسوق بدر التجارى قبل المعركة وفى انتظار اشتعال أوارها » .

وقد أجابت زاهية قدورة قائلة(٢٥) : ألم يدر « لامانس » أنه من العبث فصل الحياة الاقتصادية عن الحياة السياسية ؟ ـ ذلك اذا صح ادعاؤه ـ كما أن اصطحاب التجارة والأمتعة الى الحرب حينذاك كان ضرورة لاتقاء العوز فى حالة دوام القتال حينما يكونون بعيدين عن حاجيات الحياة ، ثم لاكتساب الفرص فى البيع والشراء بعد توطيد الأمر . اذ يكون من الوعى الصحيح والنشاط الكبير أن يفكر المرء فى الأمرين معا . ما دامت المسافة بعيدة والنقل شاقا . فهذا اذن ليس معناه أن الغرض الأول فى تلك الغزوات التجارة فحسب ، وليس فى هذا التعليل ما يوجب تغيير وصف الغزوتين من أنهما حربان للقضاء على الشرك الى « حرب من أجل المال » .

والواقع التاريخى ينكر ما قاله لامانس فضلا عما أجابت به السيدة زاهية . فأين تكون الحملة التجارية فى غزوة بدر الكبرى . وقد كان خروج النبى من المدينة فى أصحابه لثمان خلون من شهر رمضان سنة ٢ هـ . وكان جنوده ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يعتقب كل اثنان بعيرا . وأحيانا كل ثلاثة أو أربعة يعتقبون بعيرا ، اذ كان عدة ما معهم سبعين بعيرا وثلاثة أفراس . ولم تلبث الحرب أن نشبت بعد أيام .

أما بدر الآخرة فلم يكن بها معركة . وانما كان أبو سفيان قد أنذر المسلمين يوم أحد بالحرب فى بدر العام القادم .. فحمل المسلمون الى سوق بدر تجارتهم وهم مستعدون لحماية أموالهم لو أن أبا سفيان أنفذ وعيده ، فالرحلة للتجارة ولكنها تجارة قوم محاربين يتربص العدو بهم الدوائر ، وحين جاء أبو سفيان على رأس ألفى مقاتل أو يزيدون ووصلوا « مجنة » من ناحية الظهران قال أبو سفيان لقومه : « يامعشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب .. وان عامكم هذا جدب .. وانى راجع فأرجعوا » ، ورجع الناس . وفرغ الرسول وقومه من تجارتهم بعد ثمانية

---

(٢٥) عائشة أم المؤمنين ص ١٧ .

أيام من مقدمهم فى شعبان سنة ٤هـ، فرجعوا الى المدينة غانمين سالمين(٢٦) دون اشتباك ولا معركة ٠

* * *

٩ ـ اتهام عائشة بالتآمر لاستخلاف أبيها :

زعم لامانس أن عائشة كانت تناصر ما سماه « الحكومة الثلاثية » بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة اذ اتفقوا على تولى الخلافة بالترتيب السابق ٠ وأنها كانت تهيىء الجو لنجاح ذلك الاتفاق فى منزل الرسول ٠ وكان اتفاق الثلاثة فى عهد النبى ، وقد عملوا لذلك : ففسخ أبو بكر خطبة عائشة لجبير بن مطعم ليزوجها الرسول بالرغم من امتناعها واشمئزازها لتكون أكبر معين له على تحقيق أطماعه ، وزعم أن عائشة وحفصة بالرغم مما بينهما من تباغض لم يختلفا فى أداء ما يجب لتحقيق هذا المطمع ٠ مما أدى الى وقوف معظم زوجات النبى ضد حزب عائشة وحفصة وقد كان «محمد» عاطفيا ، ولا سيما بعد أن كبر ورق عوده فكان لعائشة سلطان كبير عليه ٠

وقد أجابت زاهية قدورة عن هذه الشبهات بما خلاصته(٢٧) :

١ ـ فسخ أبى بكر خطبة جبير ليس كما قال « لامانس » ٠٠ ولكن أم مطعم أرادت أن تستوثق من أن أبا بكر لن يدخل ابنها فى الاسلام ٠ فلما لم تجد من أبى بكر رضاه عن استمرار ابنها على دينه رغبت هى وزوجها فى فسخ هذه الخطبة ٠ حقا كان لأبى بكر رغبة فى أن يشرف بمصاهرته ٠ ولكن هكذا سار الأمر طبيعيا ٠٠ تماما كما حدث فى زواج النبى بحفصة اذ لم تجد من يتزوجها ٠ رفض أبو بكر هذا ، ورفضها عثمان فقال النبى لعمر حين شكا اليه رفض عثمان : « حفصة ينزوجها خير من عثمان ، وعثمان يتزوج خيرا من حفصة » ثم خطبها لنفسه ٠

---

(٢٦) فقه السيرة ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ، وحياة محمد لهيكل ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ٠

(٢٧) عائشة أم المؤمنين ـ الفصل الثالث ص ١٤٣ وما بعدها ٠

٢ ـ اما ان عائشة كانت تشمئز من هذا فالواقع ينكره.لقد كانت تتعلق بالنبـى فى طفولتها لأنه كان يوصى بهـا خيرا . وكانت تدرك عظمته ورجولته وشرف الزواج به فضلا عما اشتهرت به من الحب العميق له والغيرة عليه غيرة تحدث بذكرها الركبان .

٣ ـ ولقد كان زواجها بالنبى صغيرة ولا يسمح سنها بالقدرة على حبك المؤامرات التى هى من عمل اصحاب الأنياب الزرقاء .

٤ ـ وما زعمه « لامانس » من أن مهمة عائشة كانت تحبيب أبى بكر للرسـول ، وأنها فى حبها لزوجها انما أرادت تحقيق غايات أبيها . وآخر تلك المجهودات امامة ابى بكر للمصلين فمردود :

(أ) لأن حب النبى لأبى بكر كان معروفا قبـل الزواج ، فقد اصطفاه خليلا ورفيقا فى هجرته حتى نزل بذلك القرآن « **ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا** »(٢٨) وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت ابا بكر .ولكن أخى وصاحبى » وهـذه الأخوة كانت معروفة قبل الزواج حتى ان خولة بنت حكيم حين ذهبت تخطب عائشة من أم رومان ، قالت : كيف والنبـى أخو ابيها ابى بكر ؟ !

(ب) روى عن عائشة انها لم تكن ترغب فى امامة أبى بكر عكس ما زعم لامانس ، فقد روى احمد فى مسنده (جـ ٦ ص ٢٢٤) والبخارى فى صحيحه (١/١٧٥، ١٧٦) ان رسول الله ﷺ قال:«مروا ابا بكر فليصل بالناس » . فقالت عائشة : ان أبا بكر رجل رقيق الصوت لا يستطيع الصلاة. فكرر الرسول امره ثلاث مرات . وفى رواية أخرى : ان عائشة اقترحت اسم عمر وطلبت من حفصة ان تقترح هى أيضا عمر . ففعلت حفصة استجابة لقول عائشة التى لم تقل الا حقا معروفا . فقال الرسول : « لأنتن صواحب يوسف » ويروى ابن حنبل ان النبى ﷺ كان قد أصدر أمره الى عبد الله بن زمعة ليبلغه ابا بكر فلما لم يجد عبد الله ابا بكر دعا عمر

---

(٢٨) التوبة : ٤٠ .

الى الصلاة ، وكان جهير الصوت ، فسمعه الرسول وعرفه ، وعندئذ طلب النبى من عائشة أن تأمر أبا بكر أن يصلى بالناس فأجابته « يارسول الله ان أبا بكر رجل رقيق . لا يملك دمعه . وانه اذا قرأ القرآن بكى » وأخيرا صلى ابو بكر بالناس . فأين أثر عائشة وسيطرتها على الرسول ؟

« وهذه الروايات تتفق فى معناها . ويتضح منها انه لا صحة لادعاء لامانس ، فلو انها كانت تعمل لامامته الصلاة لما طلبت أن يصلى غيره بالناس . ولو أنها كانت متفقة مع أبيها ـ كما يقول ـ لكانت هى البادئة فى ذكر اسم ابى بكر . وقد عزيت امامة أبى بكر الى أنها ترمز الى استخلاف النبى له . فكيف اذن يوفق بين قوله : ان عائشة تعمل على تولية أبيها خلافة الرسول فى امامة المسلمين ، وبين الواقع ، انها أرادت أن تحول دون ذلك .. وقد قالت فى هذا : « والله ما بى الا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم فى مقام رسول الله ﷺ » . فأين اذن المؤامرة المدبرة من الاتفاق الثلاثى وعائشة ؟ واين اذن خضوع الرسول واستسلامه لرغبات عائشة ؟ وهو الذى كان على وشك طلاقها ـ مع سائر زوجاته ـ لطلبهن زيادة النفقة ، وهو طلب عادل فى حقيقته ، غير أن الرسول رأى أنه يتنافى مع رسالته .

(جـ) ولم يطل مرض الرسول الا خمسة عشر يوما فى بيت عائشة ، والناس تتلهف لسماع أخباره بين زائر وسائل ، ولا يعقل أن تستطيع عائشة بهذا الزمن القصير أن تدبر المؤامرة ، بالاتفاق مع أبيها ـ لدعم مركزه كما قال (Huatt) ولا سيما أن بيت عائشة لم يكن الا غرفة واحدة فيها المريض . وفيها الزوار أو الزوجات . فلم يكن الوقت أو المكان مناسبا للنشاط الذى زعمه المستشرقون .

والثابت أن عائشة لم تتدخل فى السياسة فى عهد النبى ولا أبيها ولا عمر ولا بدء عهد عثمان . فلما اضطربت الأمور وشكا الناس الى أمهم عائشة تدخلت فى الأمر . جاء أهل الكوفة يشكون الوليد بن عقبة الذى تولى امرهم بعد عبد الله بن مسعود . فالفرق بين الشخصيتين وحده كان كافيا للاحساس بالفرق المثير للرعية .

واختصم اهل البصرة مع عاملهم · وأهل مصر مع أميرهم ـ عبد الله ابن أبى سرح ـ فلما كثرت الشكوى حاول الصحابة نصح عثمان ، ومنهم عائشة يسألونه ان ينصف الناس من عماله وكان اشتغالها بالسياسة اجتهادا منها خالفتها فيه أم المؤمنين « أم سلمة » حين خرجت الى البصرة مع طلحة والزبير وقالت : « ياعائشة ، ان عماد الدين لا يقام بالنساء » وان كانت ـ فيما يرويه الشعبى عن ابن أبى الحديد ـ تفضل عليا للخلافة عن طلحة والزبير · وهى رواية مطعون فيها · وقد بررت عائشة عملها بقولها : انما اخرج للاصلاح بين الناس وارجو فيه الأجر ان شاء الله · وقرات قوله تعالى : **« لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس »(٢٩) ·**

فهى داعية الى حق تراه · ولما حدثت واقعة الجمل التى راح ضحيتها نحو عشرة آلاف مقاتل من الفريقين ندمت حتى قالت للقعقاع ابن عمرو : « والله لوددت انى مت قبل هذا اليوم بعشر سنين » · وكانت اذا قرات الآية **«وقرن فى بيوتكن»**(٣٠) بكت حتى تبل خمارها ··و كانت كلما ذكر يوم الجمل تبكى حتى كان يظن من رآها انها لا تسكت ، وقبل وفاتها قالت : انى قد احدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فادفنونى مع أزواج النبى ، تعنى خروجها مخالفة الآية **« وقرن فى بيوتكن »** ·

ولم يكن وقوفها ضد على لما ذكره المستشرقون وأمثالهم الذين تستروا بالاسلام قديما من قوله للنبى فى حادثة الافك : النساء غيرها كثير · فكان ما كان ، وقد خطبت الناس حين غادرت البصرة قائلة : « انه ـ والله ـ ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة واحمائها · وانه عندى على معتبتى من الأخيار » · وقال على : « يا ايها الناس ، صدقت والله وبرت ، ما كان بينى وبينها الا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة » ·

* * *

---

(٢٩) النساء : ١١٤ · (٣٠) الأحزاب : ٣٣ ·

١٠ ـ اتهام عائشة بالتجسس :

اتهم « لامانس » عائشة بالتجسس على النبى لمصلحة ابيها كى تخبره بما يجب معرفته . وقال : انها استمعت والرسول يتحدث مع عثمان ابن عفان . يعنى بذلك ما جاء فى المسند لأحمد (جـ ٦ ص ١١٤) انها قالت : « ما استمعت على رسول الله ﷺ الا مرة . فان عثمان جاء فى نحر الظهيرة . فظننت انه جاءه فى أمر النساء فحملتنى الغيرة على ان أصغيت اليه فسمعته يقول : « ان الله عز وجل ملبسك قميصا تريدك امتى على خلعه فلا تخلعه » . فلما رأيت عثمان يبذل لهم ما سألوه الا خلعه علمت انه من عهد رسول الله ﷺ الذى عهده اليه .

والحادثة الثانية التى يرى لامانس انها ذروة التجسس هو افضاؤها لأبيها بما لم يكن الرسول قد قاله لأحد يوم عزم على فتح مكة . اذ دخل عليها ابوها . فوجدها تدبر جهاز الرسول . فقال : يابنية آمركم رسول الله ﷺ ان تجهزوه ؟ قالت : نعم . فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : لا ـ والله ـ ما أدرى !!

والحادثان لا يستتبعان هذا الادعاء . فالحادث الأول : نزعة ودافع غيرة واضح من حديثها نفسه . أما الحادثة الثانية فليس فيها ما يفهم منه التجسس . اذ كان لا بد للرسول ﷺ من أن يخبر عن تجهزه للسفر . وقد اخبرهم فعلا بذلك لما حان الوقت .أما جوابها بأنه مسافر . فذلك ما لا يحتاج الى كبير عناء لمعرفته ، طالما كانت كل الظروف التى رآها أبو بكر فى منزل الرسول ﷺ توحى بأنه يريد السفر . ولو أنها أخبرت اباها بالجهة المقصودة لكان فى ذلك ما يؤيد رأى « لامانس » . أما وقد أنكرت معرفتها سواء علمت أو لم تعلم ، ففيه الدليل الكافى على دحض قول لامانس .

وقد قالت الكاتبة « Nabia Abbot » : ان ماسماه « لامانس » بالتآمر والتجسس ليس الا تصرفات طبيعية لامرأة شابة جميلة فرض عليها الحجاب مؤخرا .

« لقد جزم « لامانس » جزما قاطعا بما وصل اليه من نتائج . بالرغم

من أن الأسباب التى استند اليها لم تكن لتزيد عن حادثتين ، وليس من صفات العالم أن يعطى حكما قاطعا من ملاحظتين . والعالم الصحيح هو الذى لا يصنع قاعدة الا اذا تكررت أمثلتها ، وتأكد من صحتها . أما « لامانس » فقد اكتفى بحادثتين ، ووضع قواعد دلت النصوص على خلافها . فهل يبرر البحث العلمى ـ وقد رأينا كيف كانت أسسه عند الأب المحترم ـ اصدار أحكام قاسية كالجاسوسية والتآمر والسيطرة على رجل عاطفى ؟

« العالم الحق هو الذى ينظر الى الحقيقة كاملة . لا الذى يأخذ نصفها . ويترك النصف الآخر ، أو يتجاهلها . لأن الحقيقة وحدة كاملة لا يمكن تجزئتها . فتصبح نصف حقيقة مبتورة مشوهة .

« ولنذكر ـ بعد كل ذلك ـ أن « لامانس » وهو يكتب عن نبى الاسلام ورجال المسلمين ، انما يرتدى الثوب الكهنوتى اليسوعى ، وان مهمته الأولى هى التبشير لغير الاسلام فى بلاد المسلمين » (٣١) .

« وقد كان يفيده ان يمعن النظر فى طاعة عائشة لزوجها وسيطرته التامة عليها بالرغم من حبه وتدليله لها . حتى انها لم تكن تزور أباها فى أثناء مرضه الا باذن من الرسول . لو فعل ذلك لأفاده عدم الانزلاق فى هذا الخطأ الأخير .

« أما ادعاؤه الآخر أنها لعبت دورا فى تولية أبى بكر الخلافة . فهو بدوره ينقصه الدليل . وقد وردت عن عائشة أقوال عن الرسول فى فضل أبى بكر وتفضيله الا أننا نرجح أنها نقلت عنها بعد وفاة الرسول . والا لسئل ﷺ عنها رأسا . ولا يعقل انها قيلت عقب وفاة الرسول مباشرة . فقد كانت عائشة فى شغل عن الدنيا كلها ، فى حزن على هذا الذى فقدته . واذن فتكون هذه الأقوال قد قيلت بعد أن بويع لأبى بكر . . وبالتالى يكون ادعاء « لامانس » أنها لعبت دورا مهما فى استخلاف أبيها . وحبكت المؤامرة من أجل ذلك ، غير صحيح »(٣٢) .

* * *

---

(٣١) عائشة أم المؤمنين ص ١٥٦ .

(٣٢) المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

● **دعوى مسحة مسيحية على محمد (صلى الله عليه وسلم) :**

قال المرحوم العلامة « خ · كمال الدين » فى كتاب « **المثل** الأعلى فى الأنبياء » الذى ترجمة الأستاذ **امين محمود الشريف** :

« **دابت** المجلة الاسلامية على أن تنشر بين الفينة والفينة صورا **قلمية** فى وصف المصطفى ﷺ ، فلما قرأها مستر « كاش » عقب عليها فى كتابه المسمى « العالم الاسلامى فى ثورة » بأننا نصور النبى ﷺ بصـــورة عليها مسحة من المسيحية ·

والحق ان الغرب لم يعرف الاسلام ورسول الاسلام على حقيقتهما الا منذ عهد قريب جدا · وجل ما كان يعرفه الغرب عنهما لم يكن ســوى أساطير من نسج الخيال حيكت خيوطها باتقان ، وافتراها قوم لا ضمير لهم ولا وجدان · ولكن سرعان ما تجلت صورة الحق فى جمالها الطبعى حتى بهرت ابصار الأعداء ، وفضحت زيف ما كتبوا وسطروا ، وهدمت صرح ما بنوا وشيدوا ، وتبدت لهم صورة الحق رائعة ساحرة تأخذ بمجامع القلوب ، وتستأسر أحداق العيون ، فلم يستطيعوا ان يجدوا فيها مأخذا ، ولا الى النقد منفذا ، وما كان جوابهم الا ان قالوا : « صورة محمدية مستعارة من المسيحية » ، ثم قالوا : «لا جدال أن هذه الصورة رائعة الحسن والجمال · فلا يمكن أن يكون مصدرها الاسلام » ، تلك كانت حجتهم التى وجدوا فيها بعض سلوى وعزاء ، ثم بدا لهم من بعد ما راوا الآيــات ان حجتهم داحضة ، وان قضيتهم خاسرة ، فنكسوا على رؤوسهم ، ولاذوا بأذيال دعوى جديدة فقالوا : « اسلام جديد ومحمد جديد » ، تلك هى صيحتهم اليوم ، وما كنا لننتظر منهم أكثر من هذا الثناء ، وقد قبلنــا ما قالوه على هذا الاعتبار ·

نعم لا يزال ذكر المصطفى ﷺ جديدا على**أسماع أهل** الغرب ، مثله فى ذلك كمثل زهرة جميلة كأجمل ما أنت راء فى زهور الطبيعة · كلما مرت عليها الأيام زادت حلاوة وطلاوة ، وكلما مرت **عليها** الأيام زادت

غضارة(٣٣) ونضارة ، والواقع ان ما يراه الجاهل قبيحا منفرا يـــراه العالم جميلا ساحرا ، وكلما أنعم النظر فيه تبدت(٣٤) له محاسنه .

وانه لمن دواعى الأسف أنه ليس الجهل وحـده هو الذى حجب أنظار أهل الغرب عن مشاهدة أنوار المصطفى ﷺ . بل ران(٣٥) على قلوبهم ما كانوا يكسبون من افتراء الكذب ، وتحريف الوقائع وكتمان الحقائق .

ان دعواهم « محمد جديد واسلام جديد » ليست صيحة جديدة . بل هى صدى للصيحة القديمة التى تتردد فى الغرب كلما ظهر فى أوروبا أحد المعجبين بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ممن لا يخشون فى الحـق لومة لائم . ومن قبل ما قالوا عن « جيبون » انه كاتب وثنى . لأنه أثنى على النبى ﷺ ، وقال كلمة الحق عن حالة المسيحية وقت مبعثه مما لم يرق فى نظرهم .

ولما جاء « كارليل » وكشف النقاب عن الجمال المحمدى وجلاه لأعين الغربيين ، هبت فى وجهه الصيحة القديمة بعنف حتى اضطر عميد جامعة أدنبرة أن يذعن لها ، واضطر على الرغم من قوة شكيمته أن يخفف من لهجة ثنائه فيما بعد . ولكنه على كل حال فتح أعينا عميا وآذانا صما ، وأعقب كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ما كتبـه هجنز وديفونبرت ويوز ورث سمث فى انجلترا وكرهل وجريمنس فى المانيا .

أما الكتاب العظيم الذى ألفه « كيتانى » الايطالى فيرى علماء الغرب أنه هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها النصارى على الاسلام .

وجملة القول ان نظرة الغرب الى النبى ﷺ قد تغيرت . فلم يعد فى نظر الغرب دجالا . بل مصلحا عظيما، ولم يعد مصابا بمرض عصبى يشكو من الصرع . بل رجلا ذا شخصية عظيمة وعزيمة ماضية بل حاكمـا

---

(٣٣) غضارة : حسنا وامتلاء .
(٣٤) تبدت : ظهرت .
(٣٥) ران : تكاثف وأصبح حاجبه كثيفا .

مستنيرا يغمر الرعية بحبه وفضله . ولم يعد رجلا وصوليا . بل نبيا ذا مبدا ثابت لا يحيد عنه ولا يتزحزح . كل هذا قد اعترفت به أوروبا اعترافا صريحـا .

... « وان النهضة الحديثة التى عم نورها أهل الغرب وفتحت أعينهم الى مزايا الاسلام هى التى أشاعت الاضطراب فى معسكر الأعداء . ونفذت الصورة التى جلونا فيها مناقب النبى ، الى أعماق قلوبهم بدليل قولهم : اننا نحاول التدليل على أن محمدا ﷺ هو المثل الأعلى للانسانية من الوجهة الخلقية ، وأننا لجأنا فى سبيل ذلك الى تصويره فى صورة جديدة استعيرت ألوانها من المسيحية .

* * *

● الرد على الدعوى :

ولكننى أسأل المسيحيين بصفة جديدة . فأقول : « هل يوجد فى المسيحية من الألوان ما يسعف ريشة المصور فى رسم صورة سوية تصلح أن تكون مثلا أعلى للانسانية ؟ الواقع أن المبشرين يطلقون لقب مسيحى على كل ما يروق فى نظرهم وان لم يرد له ذكر فى كتابهم . وبتتبع الثابت عن رسول الله ﷺ من السيرة ثم بدراسة الانجيل يمكن أن نعرف عن بينة أن الكتاب المقدس ليس فيه عشر ما دون عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى تتبين فرية(٣٦) القائل اننا نستعير لمحمد وصفا مسيحيا .

وان كثيرا من الفلاسفة مثل دكتور « غوستاف لوبون » ومثل « ول » ومثل مستر « بول » تحدثوا عن محمد عليه الصلاة والسلام بما ردده المؤرخون العرب القدماء ، وبما نستنبطه نحن المحدثين ، فهل يقول مستر كاش ان هؤلاء أيضا قد خلعوا على محمد ﷺ اوصافا مسيحية ؟ جدير به أن ينعم النظر قبل أن يجرؤ على هذا الزعم .

* * *

---

(٣٦) فرية : ادعاء كاذب .

أهى جرائم قتـــل ؟

عقد المستر « كاش » فى كتابه « اتساع رقعة الاسلام » فصلا بعنوان « جرائم القتل » أورد فيه قصصا استدل بها على غلظ قلب النبى « المبعوث رحمة للعالمين » .

١ ـ مقتل عصماء :

فزعم أن النبى ندب أبا بصير عمير بن عدى وهو كفيف البصر الى قتل امرأة من قومه هى عصماء بنت مروان ، وهى شاعرة يهودية ولاؤهـا لبنى الأوس .

والجواب : انها كانت تسـب النبى كثيرا سبابا فاحشـا بعـد مقتل أبى عفك اليهودى . وكانت سليطة ترهب الذين يريدون أن يدخلوا فى الاسلام من قومها ، فلما قتلها أبو بصير استعلن بالاسلام من قومهـا كثيرون .

وهى رواية منكرة لأنها تخالف الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ من نهيه عن قتل النساء فى الحرب فما بالنا بذلك فى السلم؟!.وفى صحيح البخارى باب بعنوان « قتل النساء فى الحرب » روى فيه النهى عن قتـل النساء والأطفال . وفى فتح البارى أن أصحاب النبى الذين ذهبوا لقتـل عدو الله ابن أبى الحقيق أمسكوا عن قتله حين حالت بينهم وبينه روجه ، تنفيذا لحديث النهى عن قتل النساء .

ثم ان هذه الرواية لم يروها محدثون ثقات ، فهى رواية الواقدى وابن سعد وابن هشـام .

* * *

٢ ـ مقتل أبو عفك :

ثم زعم أنه عليه الصلاة والسلام قتل أبا عفك وكان عمره (١٢٠) عشرين ومائة سنة .

والجواب : ان هذا يخالف الثابت عن رسول الله ﷺ من النهى عن قتل العجائز ، ففى سنن أبى داوود عن أنس أن رسول الله ﷺ قال :

« انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ، ولا تغلوا وضموا غنائكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » . وهى وصية محفوظة كررها أبو بكر فأوصى بها جيش زيد حين أرسله الى الشام اذ قال له « لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا(٣٧) ولا تمثلوا(٣٨) ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة » ، وهذا خير دليل على كذب وبهتان هذه الفرية أيضا .

* * *

٣ ـ أبو سنينة واليهود :

وقد زعم أن النبى أمر بابادة جميع اليهود حتى تمكن من قتل أبى سنينة .

والجواب : أن هذا ينقضه ما صح عن النبى أنه نهى عن قتل النساء والاجراء الذين يقومون بأعمال غير القتال وعن قتل الشيوخ والأطفال كما فى حديث أبى داوود . وكل رواية عن قتل انسان لم يشترك فى القتال اشتراكا فعليا أو استحق القتل قصاصا أو حدا . فهى مكذوبة على رسول الله ﷺ وان كان اسنادها صحيحا .. ومن هذا القبيل رواية مقتل أبى سنينة « فان الادعاء بأن النبى صلى الله عليه وسلم أصدر أمرا عاما بابادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبى سنينة وحده . ادعاء يناقض نفسه بنفسه . فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لابادة اليهود جميعهم »!(٣٩) .

* * *

---

(٣٧) الغلول : هو اخفاء شىء من الغنائم قبل توزيعها على الجنود . فالواجب على الجندى أن يسلم ما يغنمه لقيادته .

(٣٨) التمثيل بجثث القتلى هو تشويهها لشدة الحنق والغضب على أصحابها .

(٣٩) زكريا هاشم فى المستشرقون والاسلام ص ٣٠٨ .

٤ ـ مقتل كعب بن الأشرف :

كان والده من طىء ٠ وقد تزوج كعب من بنى النضير فكسب بنسبه ومصاهرته منزلة كبيرة ٠ وعندما وفد النبى ﷺ على المدينة عقد معاهدة مع اليهود على أن يكون المسلمون واليهود معا ضد كل معتد على المدينة ٠ ولكن بعد بدر اغتاظ اليهود ومنهم كعب الذى أخذ يهجو النبى بشعره محرضا المشركين على قتاله ، ورحل الى مكة يحرض أهلها على الرسول ٠ ولم يكتف بهذا بل وضع خطة لاغتيال الرسول عقب عودته من مكة ٠ وانقلب من موقف الحليف الى موقف الأعداء المقاتلين فاستحق الاعدام ٠ ولكن « كاش » و « موير » يجعلان من مقتله سبة عار لحركة الاسلام ٠٠

وقد روى ابن سعد أن اليهود لما جاءوا الى النبى يشكون اليه مقتل كعب قال لهم : انه آذانا ٠ ولو وقر كما وقر غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر ٠ وعرض عليهم النبى أن يكتب لهم كتابا فقبلوا ٠ وبقى هذا العهد عند « على » وقد روى البخارى أسباب قتل كعب التى ذكرناها ٠ وهناك رواية أخرى تقول : أن محمد بن مسلمة حين سأل النبى فى قتله كعبا قال له : « ان كنت فاعلا فلا تعجل حتى تستشير سعد بن معاذ » وفى رواية أنه سكت ولم يحر جوابا ٠٠ ولكن لورد« موير » يكثر من ذكر تفاصيل خطة اغتياله موهما أنها من صنع محمد عليه الصلاة والسلام ٠ وموير نفسه يبدى التشكك فى هذه التفاصيل ٠ وموير وكاش وغيرهما يعلمون أن كل القوانين الوضعية والسماوية تجعل مجرم الحرب المحرض على نشوبها والمدبر لها مستحقا للاعدام ٠٠ وهذا هو الذى فعله المسلمون ٠ غير أنهم كانوا نبلاء فرسموا الخطة التى تكفل عدم اراقة دماء غير دم المجرم ٠ فاستدرجه محمد بن مسلمة ليلا الى خارج الحصن فقتله ٠ حتى لا يتعرض لحماية قومه أو آل بيته فتكون الضحايا اكثر من جزور ٠

* * *

٥ ـ مقتل سلام بن أبى الحقيق :

ولا أدرى أى غضاضة فى مقتل سلام ، انه كما يعترف « كاش » و « موير » شجع بعض القبائل المجاورة على قتال المسلمين حتى نهض

على بن أبى طالب على راس جماعة اطفات نار غدرهم . وكان سلام هـذا قائدا فى موقعة الأحزاب فهل فى قتل المحاربين والمحرضين على حرب المسلمين غضاضة أو خطيئة أو تهمة لمن قتله فقتل جرثومة شر بقاؤها بقاء للفتنة ؟ ..

* * *

٦ ـ سبى نساء بنى المصطلق :

زعم « كاش » أن المسلمين اسروا نساء بنى المصطلق .. وكل ما جاء فى الأمر هو ما روى عن أبى سعيد الخدرى أن نفرا من المسلمين شاءوا أن يتزوجوا بعض الأسيرات زواج متعة . على أن يعزلوا حتى لا تحمل الزوجات . فنهى عن ذلك الزواج الذى يسمى زواج المتعة . والثابت الصحيح أن النبى تزوج جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق فأطلق المسلمون كل الأسرى الذين فى أيديهم تكريما للنبى ﷺ .

* * *

شبهات كارليل

عاب « كارليل » على القرآن :

١ ـ نقص الترتيب فيه ويزعم أنه ليس مرتب الفكر ٠
٢ ـ ولا منطقيا ٠
٣ ـ وبه تكرار ٠

الجـواب :

أما ترتيب الفكر القرآنى فانكاره دليل على أن القائل بهذا ضحل الثقافة الاسلامية ٠ فالمفسرون الكبار لم يتركوا آية أو سورة الا وتعرضوا للعلاقة التى تربط الآية أو السورة بما قبلها وما بعدها ٠ وذلك لأن ترتيب الآيات القرآنية توقيفى بالاجماع وترتيب السور توقيفى عند الجمهور ٠ وفى تفسير سورة القصص الذى كتبته نماذج لهذا ٠

وعذر الغربيين فى هذه الدعوى عندما قالوها أن طبيعة عصرهم كانت تجنح الى التنظيم الكمى والنوعى ومنطق الاحصاء والتبويب ، فأرادوا أن يمزقوا الهيكل القرآنى ليجعلوا منه أبوابا منوعة لركام نوعى ٠ فكل ما يتعلق بالصلاة له باب ، وكل ما يتعلق بالقضاء له باب ، وما يتعلق بالقصة كذلك ، وهكذا ، كمن يمزق الانسان ليجعل الأصابع فى معرض والعيون فى معرض والأذنين فى معرض متجاورات ٠٠ ومثل هذا لا يجعل من الانسان انسانا ، فللعين رسالتها فى مكانها من الجسم مفصولة عن العين الأخرى بالأنف ، وهكـذا : أجزاء الآيات تؤدى كل آية وظيفتها الجمالية والعمليـة فى مكانها بين غيرها ٠ وتفقد خواصها اذا جردت عما قبلها وما بعدها ٠ وهكذا الفكرة الأدبية الرائعة لا تكون بتراء الا وهى شوهاء بالقياس اليها ذاتها وهى واسطة العقد ، أو حبة من حباته ٠

وقد انتقلنا من عصر الكم والاحصاء واطراد النظريات والتسـليم بقوانينها النسبية ٠ الى عصر الايمان بالزمن كأحد الأبعاد الأربعة اللازمة

للأشـياء ٠ عصر فلسفة الحركة والتطور ، عصر التحليل النفسى وادراك ما سماه العرب الأقدمون فى النقد الأدبى « تداعى المعانى » ، ومنطـق العصر العلمى لا يعد اذن انسياب الأفكار والمبادىء المعروضة فى القرآن على ما هى عليه عيبا ٠ وانما يعتبره أمرا طبيعيا ٠ ٠ فالترابط نسبى ووراء الأبعاد المعروفة بعد آخر كان مجهولا ، ووراءها كشف مجهول لا ندرى كنهه ٠ والأسلوب القرآنى فيه طبيعة الحركة وفيه سمو الترقى بالقارىء ، عقله وروحه ووجدانه وسلوكه ٠٠ وطبقا لكل هذا الذى نعرفه وذلك الذى نجهـله كان القرآن ، وجهلنـا بالحكمـة لا يعنى انها غير موجودة ٠ ولو كان عند كارليل حس جمالى لأدرك مثلا فى تجاوز سـورة القمر بوعيدها وتهديدها المزمجر العاصف وسورة الرحمن بجناتها الوارفة المثمرة صورة واد مجدب رهيب انتهى الى واد خصب ظليل ٠٠

* * *

● **سطحية العبارة أم العمق ؟**

وأما عيب القرآن بأن منطقه سطحى ولا يصب فى اطار الهياكل المنطقية(٤٠) التى صممها المناطقة للفكر فمردود لأمور :

أما المنطق السطحى للقرآن فهو أحد وجهيه « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »(٤١) فلابد له ـ وهو كتاب هداية للكافة ـ أن يكون ظاهرا مقنعا مرشدا مفيدا بسطاء الناس وعامتهم ٠٠ وذلك مستوى نلتقى عنده كل مستويات الذكاء ، فتقوم بهذا الوحدة الأساسية التى تتلاقى عندها جميع الطبقات ، فلا تقع مأساة التمزق الاجتماعى الناشىء عن الانفصام(٤٢) الفكرى الطبقى ٠ انفصام الذين يعيشون فى الأبراج العاجية

---

(٤٠) الهياكل المنطقية هى أساليب الاستدلال وترتيب القضـايا المنطقية مثل ا = ب ، و ب = ج ، ا = ج ٠

(٤١) القمر : ١٧ ٠

(٤٢) الانفصام : الانقطاع والانفصال ٠

عن الذين يرقصون على زفيف السواقى(٤٣) وحفيف الذرة والقصب وسعف النخيل ٠

والوجه الثانى : هو العمق الذى وراء السطح وهو المتأملين ذوى البصر « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** »(٤٤) وهو المعنى بمثل قوله سبحانه « **عبرة لأولى الألباب** »(٤٥) ، « **وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون** »(٤٦) ، « **فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا** »(٤٧) ، وبقوله سبحانه مع التجوز « **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(٤٨) ٠

واليك مثلا من القرآن قوله تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(٤٩) ٠ كلام مسطحه الدعوة الى تأمل المسلم فيما يسمعه من القرآن ، فهو من عند الله خالقه ، والدليل على ذلك عدم وجود أى اختلاف واضطراب فيه بل هو محكم بديع مستقيم الأسلوب والأفكار والعظات ٠٠ وهذا المعنى الوهلى يكفى جدا ملتقى فكريا للبشرية فى موضوع الآية ٠ فهى سطحية مثمرة ٠

وأما المختصون وذوو المدارك العالية فالآية تفيض من أعماقها ما يفيضه النبع الثر البكر ، فتدبر القرآن معناه تقليب وجهات النظر ظهرا لبطن فى مسائله ٠ وتحليلها والتعرف على الغايات منها بعد اكتشاف أسباب النزول ان كانت أسبابا شخصية أو ظاهرة اجتماعية تاريخية فى وقوعها او متوقعة من شأن مسيرة الأحداث أن تصل اليها ٠

والاستفهام للانكار والتقريع ٠ وفيه نعى على القيادات الشعبية ألا تكون ذات بصر ثاقب بمجريات الأمور وربط مسيرتها بالقرآن : دفعا لها

---

(٤٣) زفيف الساقية صوتها حين تدار ، والأصل فى اللغة أن يقال زف الظليم (ذكر النعام) : أسرع ، وزف البرق : لمع ٠ والمراد هو دوران وصوت الساقية ٠

(٤٤) محمد : ٢٤ ٠

(٤٥) يوسف : ١١١ ٠

(٤٦) العنكبوت : ٤٣ ٠

(٤٧) النساء : ٥٩ ٠

(٤٨) الأنبياء : ٧ ٠

(٤٩) النساء : ٨٢ ٠

طبقـا للأوامر الموجبة ، أو منعا وقمعا وتعويقا طبقـا للنواهى الكافية الراجرة · ولا يتم ذلك لرجل الا لمن عايش القرآن بقلبه وعقله وتطبيقاته · ومعنى هـذا أن القرآن يريد خلق قادة ذوى بصر بدستور واضح المعالم · محدد الغايات والمسالك · وهـذه قمة تنشأ الآن من أجلها مدارس الساسة العالية فى الغرب · ومدارس ما يسمى بالكوادر فى الشرق · وهو آخر مبتدعات الدراسـات الاجتماعية والسـياسية فى هذا القرن ·· وآخـر ما ابتدعته هـذه الدراسات هى ذرات فى سفح الجبـل الأشم الراسى « الاسـلام » ·

ثم ماذا يعنى بتدبر القرآن ؟ اقصصه ؟ انواهيه ؟ اوامره ؟ التذكير بالله ؟ · ما آثار ذلك فى المتدبر وما العلاقة بين شـطر الآية الأولـى وشطرها الثانى ، وما الذى ينكره على القرآن من الاختلاف ؟ وما وجه الدلالة على أن القرآن من عند الله ما دام خاليا من أوجه الاختلاف ؟ هذه وغيرها دراسات عميقة فى الآية للمتخصصين · الم بها الامام محمد عبده ومحمد رشيد رضا فى تفسير المنار (جـ ٥ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٧) ·

ولقد عرف الوليد بن المغيرة المخزومى فى الجاهلية سطح القرآن الأعلى وعمقه الأسفل فقال : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وما هو من قول البشر ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** »(٥٠) ·

واما أن القـرآن غير منطقى ولا عميق لأنه يخاطب ذوى الذكاء المحدود · فقول ساقط ، لأن القرآن يخاطب كل الطبقات بلغة انفردت بقدرتها على احتواء كل عقول السامعين مهما اختلف مستواهم الذكائى ··

وفضلا عن هذا ، فقد انطوى العصر الذى يعرف فيه الانسان بأنه فقط حيوان ذكى · وقد انطوت فلسـفة علم النفس التى تجعل كل احداث الكون وتصرفات الانسان وصلاحيته لأداء دور الانسان فى الحياة طبقـا لمـا تنطق به أرقام « مقاييس الذكاء » ، لقد انكشف لذوى البصائر أن

---

(٥٠) الكهف : ١٠٩ ·

هنالك مثلا عليا . وأحاسيس انسانية ، وما يسمى « ضميرا » واعتذر لأستاذنا كامل النحاس منكر « الضمير » كجهاز فى الانسان ، فاننى أعنى به مصطلحا خاصا بمركب أدبى عاطفى اجتماعى علمى ، به يكون احساس المرء بالرضا عن عمله أو بالوخز والألم . وهـذه الأحاسيس والمثل مع غيرها تحكمنا فى مسيرتنا الاجتماعية ، والقرآن اذن حينما يجنح فى منطقه الاقناعى الى تكوين « عاطفة » أو « وجدان « أو « ضمير » الى جانب المنطق العقلى بالدليـل العلمى . يكون هـو المنطقى مع الانسان . ومع الفكر ومع علم الاجتماع والنفس . ويكون المنكرون عليه هذا الأسلوب هم الفاقدى المنطق والمختلى التفكير .

والعجب أن المستشرقين حين يثيرون هذا على القرآن ينسون ـ وكثيرون منهم مبشرون والقلة هم الملحدون ـ أو يتناسون أن التـــوراة والانجيل قد عمدا الى الوجدان يناجيانه . والى الخيال والتصوير البيانى ينميان الشـعور الطيب ، فبه الاندفاع الى الخـير قبل أى بحث عن العلة المنطقية .

والحديث عن القالب الجدلى الفلسفى أ = ب ، ب = جـ ، أ = جـ . وغيره من المقررات فى علم المنطق أصبحت نظريات أثرية « متحفية » ، وعلى الأكثر قضايا أولية مدرسية ، فللعصر الحديث الآن أساليب أخرى أقوى وأسرع ابانة واقناعا وتأثيرا ولذا ما أظن عاقلا يعيد هذه الشبهات التى نضح بها عصر البخار قبل بزوغ شمس عصر الفضاء ـ الا أن يكون كذابا أشرا يمضى الى المجاهل والأدغال النائية يقطع على أهليها طـريق النور والعرفان . أو رذل سفه نفسه .

* * *

● **التكرار :**

وأما الحديث عن تكرار بعض الفقرات والمعانى بأنه عيب ، فهذا دليل الجهل وفقدان التذوق الفنى . ذلك لأن لكل جملة تكررت مزيتها . كالعينين والأذنين فى الانسان والحيوان . فمع أن لكل جارحة فائدتها

منفردة فان وجود العينين مجتمعتين ، والأذنين كذلك لهما مزايا تزيد عن المزية التى تعطيها العين أو الأذن أو الرئة والاصبع أو الذراع أو الكف فى حال الانفراد ، لا ينكر هذا الا مكابر أو من سفه نفسه ..

على أنه من البدهى أن المرء قد يقول الجملة الواحدة فى معرض لتؤدى غرضا ويقولها ذاتها فى معرض آخر لتؤدى غرضا آخر . وكما يؤدى الرجل منا عدة وظائف تؤدى الكلمة القرآنية عدة وظائف فى مقامات مختلفة بين سطور التنزيل . بل وفى مقامات مختلفة فى عالم السلوك . وهذا سر خلود القرآن ونماء فلسفاته ومعانيه مع الأزمان والأحداث . **« ولو أنما فى الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم »(٥١) .**

هذا من حيث الدلالات المعقولة ، وفى المكرر عند تكراره ، زيادة عن المعنى المنفرد عندما نقطع الجملة عن السياق .

وأما الناحية الفنية والجمالية ، فيبدو أن القائل بهذا وأمثاله لم يعرفوا طبيعة اللغة العربية وطبيعة العرب الذين هذه لغتهم . ان الصحارى والجبال والأودية فى حياتهم متشابهة ومتكررة . والفرق الذى يميز بينها دقيق لا يدركه الا الخريت الماهر ، وهم يجدون الجمال فى هذا التشابه والتشاكل الذى يتطلب شحذ ذكاء كل من يعيش ويمشى فى هذه المسالك . والأذكياء لا يحبون الدلالات الصارخة كالدائرة الأولى فى أعلى لوحة كشف المنظار . وكذلك جاء القرآن لقوم بلاغتهم فى الدلالة الذكية ، ولو أن القرآن نزل بلغة قوم أقل ذكاء ولمحا كالأوربيين لكان للمستشرقين من الأسلوب ما أرادوا ، فلكل لغة طابع أهلها فى تفكيرهم وتصوراتهم وتعبيراتهم البيانية . لو خرج عن هذه الأصول العامة لما كان له ايقاع على الوجدان ووقع فى القلوب .

على أن التكرار مظهر جمالى تلمسه فى الرسوم الزخرفية وفى الموسيقى ، وفى الحركات الايقاعية المنتظمة ، وحتى فى تنظيم الاستعراضات العسكرية والرياضية ، بل ان الجمال الفنى فى الشعر قوامه

---

(٥١) لقمان : ٢٧ .

الأول يرجع الى تكرار ايقاع المقطع . وجمال النثر المسجوع يعود الى ظاهرة تكرارية بوجه عام . ولذا يمكن أن يقال للقرآن اعظم سيمفونية سمعها العرب فخضعوا لها ، لأنها لحن معبر أصدق تعبير عنهم وعن مجتمعهم وعن الجنس البشرى الذى يحسون طبيعته فى انفسهم ، ويستشعرون فيه دليل الأمن وروح الايمان . ان كل ما فى القرآن من مكرر وغير مكرر يمضى متسقا نحو غايات محددة ، هى تعميق الايمان بالله وحده ، وجذب العالمين اليه بذكر فضائله ونعيمه أو عذابه . ورسم المثل الواجب على المرء اتباعها فى عبادته وعاداته ليزداد بالله ايمانا .. وهذا هو ابداع التصوير الفنى أو كما يقولون « التعبير القوى الأخاذ » .

* * *

● **مقال القاسمى فى سر التكرير :**

الشيخ محمد جمال الدين القاسمى (١٢٨٣ ـ ١٣٣٢ هـ : ١٨٦٦ ـ ١٩١٤ م) من علماء الشام الكبار وقد جعل مقدمة التفسير الذى سماه محاسن التأويل فيما ينبغى للمفسر ودارسى القرآن ان يعلمه من علم الأصول وتاريخ القرآن وعلومه . وجعل لسر التكرير فى القرآن فصلا خاصا نقله عن الامام عز الدين بن عبد السلام من كتابه « الاشارة الى الايجاز فى بعض انواع المجاز » وعن تقى الدين بن تيمية ، ولأهمية ما نقله نورده فيما يلى(٥٢) :

قال الشيخ عز الدين : « فتكرير صفات الله دال على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها .

وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للايقاظ والاعتبار . وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها . لأن منها ما يحث على الطاعة والايمان ، ومنها ما يزجر عن الكفر والعصيان وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام . وكذلك تكرير المدح والذم وما يترتب

---

(٥٢) تفسير القاسمى جـ ١ ص ٢٥٧ ثم ص ٢٦٤ .

على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات ، فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيبا فى ثوابها ، وتكرير الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها ، وتكرير النيران بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطوا من رحمة الله وافضاله ، ولا يغتروا بحلمه وامهاله ، وتكرير الأحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات ، وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالايضاح والبيان ، وتكرير ذكر النعم يدل على الاعتناء بشكرها .

« **واعلم انه لا تؤكد العرب الا ما تهتم به فان من اهتم بشىء اكثر من ذكره . وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد . وكلما خف خف التأكيد . وان توسط الاهتمام توسط التأكيد . فاذا قال القائل : زيد قائم فقد اخبر بقيامه ، فان أراد تأكيد ذلك ـ عند من يشك فيه او يكذبه أو ينازعه فيه اكده فقال : ان زيدا قائم . فاذا جاء بـ « ان » فكانه قال : زيد قائم زيد قائم ، فان زاد فى التأكيد قال : ان زيدا لقائم ، فيصير بمثابة ما لو قال : زيد قائم ثلاث مرات .**

* * *

● **أمثلة لذلك :**

قوله تعالى : « **قل يا ايها الكافرون . لا اعبد ما تعبدون . ولا انتم عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد** »(٥٣)

قوله : « **ولا انا عابد ما عبدتم** » توكيد لقوله : « **لا اعبد ما تعبدون** »

وقوله : « **ولا انتم عابدون ما أعبد** » الثانية تأكيد لقوله : « **ولا انتم عابدون ما اعبد** » الأولى . أو الآية الرابعة والخامسة تأكيد للثانية والثالثة من السورة . لما وقع الاهتمام بألا يوافقهم على عبادة الأصنام وبأن الله قد حرمهم أن يدخلوا فى دين الاسلام اكد ذينك لشدة الاهتمام بهما . فهذا تأكيد واحد لكل واحد من الخبرين .

---

(٥٣) الكافرون : ١ ـ ٥ .

« وعلى الجملة : فقد اكد نفى عبادته لأصنامهم بقوله : « **ولا انا عابد ما عبدتم** » واكد نفى عبادتهم لمعبوده بقوله : « **ولا انتم عابدون ما اعبد** ».

وان حمل ذلك على وقتين مختلفين فلا تاكيد اذن .

ومثال تكرير التاكيد قوله تعالى : « **الهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر . كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون . كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم ..** »(٥٤) المعنى : الهاكم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمعاد . ثم زجرهم عن التكاثر بقوله : « **كلا** » ، ثم هددهم بقوله : « **سوف تعلمون** » ثم اكد الزجر الأول بـ « كلا » الثانية ، ثم اكد التهديد بـ « **سوف تعلمون** » ثم اكد الزجر « **كلا** » **الثالثة ، فزجرهم ثلاث مرات للاهتمام بزجرهم عن ذلك . وهددهم على ذلك مرتين ، للاهتمام بالاستعداد للمعاد .**

ومثل هذا قوله تعالى : « **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون** »(٥٥) زجرهم بـ « **كلا** » الأولى عن التساؤل والاختلاف . ثم اكد « **كلا** » الأولى بـ « **كلا** » الثانية ، وتهديدهم فيما بينهما بقوله بعد : « **سيعلمون** » ثم اكد هذا التهديد بقوله بعد « **كلا** » الثانية « **سيعلمون** » .

واما تكرير قوله : « **ويل يومئذ للمكذبين** »(٥٦) : (أ) فيجوز ان تكون مكررة على جميع انعمه ، ويجوز ان يراد بكل واحدة منهن ما وقع كذب بقوله : « **انما توعدون لواقع** »(*) .

(ب) **ويجوز ان يريد بكل عدة من عذاب الويل من كذب بما بين عدتى كل ويل .** واما قوله : « **فباى آلاء ربكما تكذبان** »(٥٧) فيجوز ان تكون مكررة على جميع انعمه ، ويجوز ان يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التى قبلها من نعمة ، ويجوز ان يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، **وبالثانية ما تقدمها . وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية ، وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة .. وهكذا الى آخر السورة . فان**

---

(٥٤) التكاثر : ١ ـ ٦ . (٥٥) النبأ : ١ ـ ٥ .
(٥٦) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ .. الخ . (*) المرسلات : ٧
(٥٧) الرحمن : ١٣ ، ١٦ ، ١٨ .. الخ .

قيل : كيف يكون قوله : « **سنفرغ لكم أيها الثقلان** »(٥٨) نعمة ، وقوله : « **يعرف المجرمون بسيماهم** »(٥٩) نعمة . وكذلك قوله : « **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون** »(٦٠) وقوله : « **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس** »(٦١) وقوله : « **يطوفون بينها وبين حميم آن** »(٦٢) ؟ ..

قلنا : هذه كلها نعم جسام . لأن الله هدد العباد بها استصلاحا لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان الى حيز الطاعة والايمان والانقياد والاذعان ، فان من حذر من طريق الردى(٦٣) وبين ما فيها من الأذى ، وحث على طرق السلامة الموصلة الى المثوبة والكرامة . كان منعما غاية الانعام ، ومحسنا غاية الاحسان .

ومثل ذلك قوله : « **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** »(٦٤) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام .

وأما قوله : « **كل من عليها فان** » فانه تذكير بالموت والفنـــاء للترغيب فى الاقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الاعراض عن دار الفناء.

وأما قوله:« **وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين** »(٦٥) فان تقديره عند بعضهم : وان كانوا من قبل انزال القطر عليهم من قبل انزاله لمبلسين : فأكد « **قبل** » الأولى بـ « **قبل** » الثانية .

وهذا لا اهتمام فيه . فانه معلوم ان اليأس من نزول المطر كان

---

(٥٨) الثقلان : الانس والجن ـ والآية من سورة الرحمن : ٣١ .
(٥٩) سيماهم : سواد وجوههم وزرقة عيونهم ـ والآية من سورة الرحمن : ٤١ . (٦٠) الرحمن : ٤٣ .
(٦١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ، والنحاس : دخان وقيل هو الصفر والنحاس المذاب ـ والآية من سورة الرحمن : ٣٥ .
(٦٢) حميم آن : ماء اشتد حره . والحميم الآنى الذى قد صار كالمهل اى دردى الزيت الأسود ـ والآية من سورة الرحمن : ٤٤ .
(٦٣) الردى : الهلاك . (٦٤) يس : ٥٢ .
(٦٥) لمبلسين : المبلس : الساكت على نفسه ـ والآية من سورة الروم : ٤٩ .

محققا قبل الانزال . فلا حاجة ـ فى مثل هذا ـ الى التأكيد . ولهذا قدر آخرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل ارسال الرياح ، أو من قبل اثارة السحاب لمبلسين ، فعلى هذا لا يكون تكريرا ولا تأكيدا .

* * *

● **تكرير قصة موسى :**

وقال ابن تيمية : « وثنى فى القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما فى طرفى نقيض ، فى الحق والباطل . فان فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة . وموسى فى غاية الحق والايمان من جهة أن الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطة من خلقه . فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكليم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار . فان الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ، ولم يكن أيضا للرسل ـ من التكليم ـ ما لموسى . فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص ، وأعظمها اعتبارا لأهل الايمان ولأهل الكفر . ولهذا كان النبى يقص على أمته عامة ليله عن بنى اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل أبى جهل يوم بدر قال : « هذا فرعون هذه الأمة » وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ، ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله ، كما أخبر عنه بقوله : « **ويذرك وآلهتك** »(٦٦) . وان كان عالما بما جاء به موسى ، مستيقنا له ، لكنه كان جاحدا مثبورا . كما أخبر الله بذلك فى قوله : « **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** »(٦٧) وقال تعالى : « **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا** »(٦٨) .

* * *

---

(٦٦) الأعراف : ١٢٧ .　　(٦٧) النمل : ١٣ ، ١٤ .

(٦٨) بصائر : عبر ، مثبورا : هالكا . أو مصروفا عن الخير ـ والآية من سورة الاسراء : ١٠١ ، ١٠٢ .

● رأى جوته فى التكرار :

قرأ أديب ألمانيا الأكبر « جوهان ولفانج جوته » ترجمة مرجلين ثم ترجمة مراتشى للقرآن فقال : أن القرآن يردد قواعد تعاليم الاسلام ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا ﷺ لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتفريع فى ضروب الكلام ، وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاستحداث اللذة وادخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف.وانما محمد ﷺ نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضموا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد ﷺ انما بعث به الى الناس ليقتضيهم القنوت والايمان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار ، بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب المثل ومواضع الاعتبار »(٦٩).

* * *

(٦٩) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ١٨٤ .

ترابط الآيات والسور

أجمع المؤرخون على أن ترتيب الآيات ، ووضع كل كلمة فى القرآن فى موضعها الحالى توقيفى ، أى نزل الأمر به من الله لنبيه فعلمه أصحابه ، وكذلك كثير من السور علم ترتيبها فى حياته ﷺ منه (ﷺ) كالسبع الطوال والحواميم وسور المفصل ، ولهذا لم يكن هنالك أى مجال للاجتهاد فى ترتيب سور القرآن وآياته بعد وفاته(٧٠) ٠

ولقد كان جهل المستشرقين الفاضح باللغة وأدبها سببا فى عدم أدراكهم الاحكام الفنى والمعنوى بين الآيات بعضها مع بعض ، وهكذا سور القرآن الكريم ، ويبدو أن قراءة بعضهم لتفاسير القرآن محدودة ، كما أن بعضهم أعماه الحقد فرمى القرآن بعدم الترابط بين سور القرآن وكذلك بين آياته ، والعجب أن هؤلاء المستشرقين أجهل الناس بآداب شعرائهم وكتابهم ثم هم يقحمون أنفسهم على أدب القرآن وبلاغته فيقول بعضهم : هنالك عدم ترابط فى الآيات ٠

١ ـ الترتيب النفسى :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ٠ والى انسماء كيف رفعت ٠ والى الجبال كيف نصبت ٠ والى الأرض كيف سطحت »(٧١) ٠

الواقع أن الآيات مترابطة تمام الترابط ، فجميعها سيقت فى معرض البرهان على عظمة الخلاق العليم المنعم المتفضل ، فلا تنافر فى الترتيب المذكور فى الآية (الابل والسماء والجبال والأرض) فهى جميعا مشاهد كونية معروضة لنظر الانسان ، تظهر فيها قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع ٠

---

(٧٠) القرآن والمستشرقون لرابح لطفى جمعة ص ٧٦ نقلا عن السيوطى والقاضى أبو محمد بن عطية ٠

(٧١) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠ ٠

بل ان الترتيب المذكور لهو الجدير بالاعجاب ، اذ يمضى مع طبائع النفس والأشياء . فان أول شيء يقترب الى قلب المخاطب فى مهبط الوحى هو الابل تحمله وامتعته الى بلد ما كان ليبلغه الا بشق النفس « **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين** »(*) . ومنها البانه وغذاؤه .. فاذا كان هنالك شيء يفتتح به الحديث مع العربى يوم ذاك فهو الابل ، ينتقل بها من مكان الى مكان ، وهو فى انتقاله فى تيه الصحراء لا يعصمه من التيه فيها الا النجم القطبى فى السماء أو لا يرحل للرعى ، أو يعود بأغنامه الا طبقا لتأملاته فى النجوم والأفق ، اتدل النجوم على الأمطار ؟ ... انه يتحرك فى الاتجاه الذى يعرفه من دلالات النجوم ومواقعها « **وبالنجم هم يهتدون** »(٧٢) ، ثم تأتى فى المرحلة الثالثة وهى هذه البيئة التى يعيش فيها وهى الأرض ، واقرب شيء منها الى قلبه تلك الجبال .. فقدم الله ذكرها لأنها البيئة الخاصة على الأرض وهى المسكن العام .. والقرآن يخاطب النفوس ولهذا مضى على الترتيب الطبعى للأشياء فى نفس المخاطب .

ان الذى يمتطى الجمل أو يرى راكبه يستشعر فى ارتفاع سنام الجمل ، وراكبه فوقه ذلك الاتجاه الى السماء ، وهذا أول ما يتبادر الى الذهن ، ثم ترتد هذه التصورات الى ما هو أقرب الى السماء وأكثر ارتفاعا ، فذكر الجبال بعدها .. فضلا عن أن ذكر الجبال العالية يستتبع التساؤل عما تستقر عليه وهو الأرض ، وربما كان البدء بالاستدلال على عظمة الخالق بالجمل .. لأن فيه من مظاهر عظمة الخالق ورحمته معا ما هو أكثر وضوحا . فهو الحيوان الوحيد الذى اذا مشى ينقل يديه ورجليه دون أن يثنى ركبته .. وهكذا كان القرآن فى ترتيب آياته وكلماته وسوره آية فى الروعة لمن كان له قلب ، أو تذوق فنى وبلاغى .

* * *

٢ ـ الأهلة واتيان البيوت :

ويقول المستشرقون فى قوله تعالى : « **يسألونك عن الأهلة ، قل هى**

(*) النحل : ٨٠ . (٧٢) النحل : ١٦ .

مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون))(٧٣)٠
قالوا : أى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم اتيان البيوت من أبوبها ؟

وهذا اعتراض الجاهلين بأسباب النزول ، فالآية نزلت فى اجابة عن **سؤالين :**

الأول : هو ما يروى عن بعض الصحابة قالوا : يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوى ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لا يكون على حالة واحدة كالشمس ؟ فنزلت الآية « **يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج** » أى انها هكذا لتعرفكم أوقات العبادات : الصلاة والصوم والحج ٠

الثانى : روى أن الأنصار كانوا اذا أحرم الرجل منهم فى الجاهلية لم يدخل بيتا من بابه ، بل كان يدخل من نقب فى ظهره ٠ أو يتخذ سلما يصعد فيه ، فنزل قوله تعالى : « **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** » ٠

ووجه التناسب واضح بين الكلمات فانه لما ذكر مواقيت الحج ناسب ان يذكر بعض أحكام الحج ، ويبين الصواب فى حكم دخول الحاج بيتا من البيوت ٠٠ وأن المشركين حرموا على أنفسهم ما أحله الله ٠

* * *

٣ ـ غش النصيحة وخيانة الأمانة :

وفى النساء يقول الله سبحانه : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** » **(٧٤)** ٠

---

(٧٣) البقرة : ١٨٩ ٠

(٧٤) الجبت والطاغوت : الأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الله والطاغوت فى أصل اللغة مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد ، فهو كل ما يطغى الانسان ويضله عن طريق الحق والهدى « **ان الانسان ليطغى ٠ أن رآه استغنى** » (العلق : ٦ ، ٧) ـ والآية من سورة النساء : ٥١ ٠

نزلت هذه الآية وما بعدها فى « كعب بن الأشرف اليهودى » حين قدم الى مكة وشاهد أهلها بعد بدر ـ وقد هزتهم الكارثة .. أهذه القلة التى مع محمد (ﷺ) تنتصر ذلك الانتصار الرائع المروع على جيش مكة وكان ثلاثة أمثال المسلمين ؟ . أهذه القلة انتصرت لأنها على الحق وقريش على الباطل ؟ . ان الضربات القاسية قد تنزل بالشعب أو الجماعة أو الفرد لتجعله يفىء الى نفسه يسائلها ويحاسبها ويراجعها ، فمن يشأ الله له الهدى اتضح له الطريق ، ومن شاء له الضلالة أخذته العزة بالاثم ، أو أوحى اليه أمثاله من الضالين الذين لم يمسهم ما مسه فزينوا له سوء عمله وعقيدته .. وهكذا فى بدر كان من البعض مراجعة وتساؤل .. فسألوا « كعب بن الأشرف اليهودى » حين وجدوه بينهم يواسيهم ويحرضهم على الأخذ بثأرهم وغزو النبى ﷺ مرة اخرى وقالوا له : أينا أهدى سبيلا ، نحن أم محمد ؟ فقال لهم : بل أنتم أهدى سبيلا .. فنزلت الآيات التى أولها ما ذكرناه « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** » الآية .. ثم بعد بيان جزائهم كانت الآية الكريمة « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** »(٧٥) .

وقد نزلت هذه الآية ـ كما يقول المفسرون ـ فى شأن عثمان بن طلحة العبدرى ، حاجب الكعبة ، لما أخذ منه الرسول مفتاح الكعبة يوم فتح مكة ثم رده عليه . وكان هذا فى العام الثامن للهجرة .

قال بعض المستشرقين : لقد كان بين الآيات التى نزلت فى كعب بن الأشرف ، وبين آية « الأمانات والحكم بالعدل » ست سنوات .. وعابوا ذلك (٧٦) .

والواقع أن الترابط بين الآيات قوى ، فانه سبحانه وتعالى لما ذكر حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال فى الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين الى طريق

---

(٧٥) النساء : ٥٨

(٧٦) القرآن والمستشرقون ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

السعادة بطاعة الله ورسوله ، وأداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس(٧٧) .

ثم ان ما فعله كعب بن الأشرف من قول الزور ، فقد استنصحه المشركون فلم يكن أمينا ، وحكموه فيما بينهم وبين النبى محمد عليه الصلاة والسلام فلم يحكم بالعدل .. وهذا هو وجه الارتباط الطبعى بين الآية التى سجلت عليه موقفه غير الأمين وغير العادل .. وبين آية الأمانات والحكم بالعدل . لا ينكر هذا الا حقود أو غبى .

* * *

٤ ـ الأخبار الاعتراضية :

ان أبلغ أساليب الاعلان ـ فى فن الاعلان الحديث ـ هو أن يقطع الحديث الاذاعى أو التلفازى ليعلن عن سلعة أو مزاد بيع ـ ثم تكمل نشرة الأخبار السياسية بعد الاعلان ، فهذا مما يجعن المعلن عنه أكثر رسوخا فى الذهن ، مما لو كان الاعلان فى نشرة الاعلانات .

وهذا ما لم يدركه « لامانس » ، فأخذ يتساءل عن وجه الترابط بين الآيات الواردة فى قوله تعالى لنبيه « **لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه**»(٧٨) وبين باقى آيات سورة القيامة التى تتناول موضوع يوم القيامة قبلها وبعدها .

ففى ثنايا مشاهد القيامة فى السورة تعترض هذه الآيات الأربع تحتوى توجيها خاصا للرسول ﷺ ، وتعليما له فى شأن تلقى هذا القرآن، ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها ، اذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى اليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه الى استذكار الوحى فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ، ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم « **لا تحرك به لسانك لتعجل به** » الخ ، ليطمئنه الى أن أمر هذا الوحى وحفظ هذا

---

(٧٧) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى ٢٨٣/١

(٧٨) القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول الى صاحبه ، ودوره ﷺ انما هو التلقى والبلاغ ، فليطمئن بالا ، وليتلق الوحى كاملا ، فيجده فى صدره منقوشا ثابتا .. وهكذا كان .. فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل ، أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان ، ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ودلالة اثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى اتجاه ، وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها الى الرسول ﷺ لم يخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة ، فهو الحق والصدق والتحرج والوقار .

وبالاضافة الى هذا ، فان الايحاء الذى تتركه فى النفس هذه الآيات هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن ، وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ، واسناده اليه سبحانه وتعالى بكليته ، ليس للرسول ﷺ من أمره الا حمله وتبليغه ، ثم لهفة الرسول ﷺ وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى اليه ، وأخذه مأخذ الجد الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعوه الى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية ، وكلمة كلمة ، يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد ، وتسجيل هذا الحادث فى القرآن المتلو له قيمته فى تعميق هذه الايحاءات التى ذكرناها(٧٩) .

وفضلا عن هذا كله فان القرآن لما كان كتاب البعث للنفوس والمجتمعات الميتة يحييها الله به « **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** »(٨٠) ، كان وضعه وسط أخبار بعث الموتى من القبور يوم القيامة بمثابة واسطة العقد ، يجمعها مع باقى العقد معنى واحد ، هو هنا معنى البعث والاحياء للموتى ـ موتى الأجسام وموتى الروح والقلوب ـ وتنفرد واسطة العقد

---

(٧٩) فى ظلال القرآن : ص ٣٧٦٧ ، ٣٧٧٠ ط . الشروق .
(٨٠) الأنعام : ١٢٢ .

بأمتياز آخر له قيمة اغلى واعلى ، لاختلاف جوهرها وامتيازه ، وهـذا هو ما يتمثل فى سمو حياة الروح والقلب على حياة الجسد « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** »(٨١) ، وهذه اشارات تشرق بها القلوب المؤمنة ، وتغرب عن المستشرقين ، « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** »(٨٢) ٠

* * *

(٨١) العنكبوت : ٤٣ ٠ (٨٢) النور : ٤٠ ٠

obeikandl.com

شبهات المستر فرانك فوستر

● تعريف بـ « فوستر » :

المستر فرانك فوستر كاتب امريكى ألف كتابه « تاريخ حياة محمد »، وقد عرض وجهة نظره تحمل طابع الشخص الذى يكتب عن خصم لدينه . فلا يعبأ بالحـق وانما يلقى الكلام على عواهنه(*) وبالرغم من انه يشترك مع غيره فى الشبهات غير اننا أفردناه بالذكر لأنه يعرض هذه الشبهات بأدلة خاصة او فى قالب خاص به فآثرنا نقل شبهاته والرد عليها بايجاز تاركين التفصيل الى الجزء الثانى عند الرد على « سفارى » واليك هذه النقاط ورأينا فيها :

١ ـ تاريخ المولد النبوى :

قال فوستر : « قبل ألف وخمسمائة سنة ظهر فى مكة رجل اسمه محمد ادعى النبوة ، وخطب الناس فى المسجد فأنكروا عليه قوله » .

والقارىء يرى فى قالته هذه مدى استخفاف المستشرقين بالحقائق التاريخية وافتقارهم الأمانة العلمية . فالكاتب بل نحن الآن فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى . وهو يقول عن بعثة الرسول ﷺ انها كانت قبل (١٥٠٠ سنة) ، ويقول : انه خطب الناس فى المسجد ، ولم يكن هنالك خطبة . بل كانت الكعبة قائمة وحولها فراغ . ولم يبن المسجد الحرام حول الكعبة الا فى الاسلام .

٢ ـ انكار أن النبى أمى :

قال فى (ص ٣٥٢) « لم يكن محمد أميا ، لأنه كان فى حاجة الى ان يكرر قراءة كتابه أحيانا ليستظهره ويستوثق من حفظه » .

والجـواب :

ان القراءة والكتابة لا تعطى المستشرقين حاجتهم من الايحاء بأن

(*) لم يبال أصاب أم اخطأ .

محمدا ﷺ قارىء كاتب الف كتابه ، لأن عيسى وموسى كانا يقرآن ولم يكذبهما أحد فى دعواهما تلقى التوراة والانجيل من السماء ٠٠ وهذا هو بيت القصيد من ترويج المستشرقين القول بأن محمدا ﷺ كان قارئا كاتبا ٠٠ أما دعوى « فوستر » فباطلة ، لأن الحفظ لا يحتاج الى أن يكون النبى كاتبا ما دام للنبى كتاب يكتبون له القرآن فور نزوله يسمون فى التاريخ « كتاب الوحى » ٠ وما دام الوحى ينزل عليه يصحح له القرآن ويقدم له التفسيرات والتوضيحات اللازمة ٠

* * *

٣ ـ ابتكار النثر الأدبى :

زعم فوستر « أن تأثير القرآن فى العرب راجع الى ابتكار محمد ﷺ لفن النثر الأدبى الذى صاغ به القرآن » ٠

ونجيب : بأن النثر الأدبى كان موجودا قبله بقرون ، ولكن الفرق بينه وبين أسلوب القرآن هو الفرق بين الأمر الممكن والأمر المعجز ٠ فاعجاز القرآن الدال على أنه لا يمكن الا أن يكون وحيا من عند الله هو الذى فرض على الأحرار من العرب أن يؤمنوا به ٠

* * *

٤ ـ انكار الجن :

اتهم فوستر القرآن والرسول بالتخريف لذكرهما الجن ٠ ونحن لم نر الجن ٠

والجواب :

ان جهلنا بالشىء ليس دليلا على عدم وجوده ، بدليل ما يكشف عنه العلم يوميا من الأمور المجهولة ٠ ثم اننا ليس لدينا دليل على أن العالم ليس فيه الا العوالم التى تقع تحت الحس مباشرة ٠ فانكار الأمور الغيبية لمجرد عجزنا عن معرفتها خرق وحمق ٠

* * *

٥ ـ هل كان النبى مشركا قبل الاسلام ؟

هكذا زعم فوستر . وزعم أن النبى تعلم التوحيد من أهل الكتاب !

الجـواب :

دعوى أن محمدا ﷺ كان مشركا فى الجاهلية دعوى بلا دليـل الا الظن . وان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، والمعروف عند المؤرخين الذين رووا التاريخ بأسانيدهم عن مخالطى الرسول ﷺ أنهم قالوا : ان النبى لم يسجد لوثن قط ، ولم يشرب الخمر ، ولم يكن عابثا كأقرانه ولداته (٨٣) قبل البعثة .

واما دعوى أنه تعلم التوحيد من الكتابيين(٨٤) فبطلانها ظاهر . لأن التوحيد هو الفطرة وهو الأصل ، والتعدد هو الخارج عن الأصل والزائد عليه ، وما كان مركوزا فى الفطرة لا يحتاج الى التلقى والتعليم ، وانما يحتاج الى تعلم التثليث والوثنية . كما فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(٨٥) ، وهى قضية قررها علم الاجتماع وعلم النفس . كما أن التوحيد هو دين ابراهيم وكان الحنفاء(٨٦) يذهبون اليه ولم يعرف نصارى العرب التوحيد حتى يقول فوستر ان محمدا ﷺ اخذه عنهم ، ففاقد الشىء لا يعطيه .

* * *

٦ ـ هل فقد النبى صفات النبوة ؟

قال فوستر : « ان قوم محمد كذبوه لأنهم لم يجدوا فيه صفات النبـوة » .

الجـواب :

ذكر الكاتب نفسه فى تاريخه من صفات النبى عليه الصلاة والسلام أنه كان مثلا عاليا فى البر والرحمة والثبات والصبر وقوة الاحتمـال ،

---

(٨٣) أمثاله فى السن .
(٨٤) المراد بالكتابيين أو أهل الكتاب : النصارى واليهود .
(٨٥) يجعلانه مجوسيا ، والمجوسية دين قديم .
(٨٦) الحنفاء قوم يبحثون عن الدين الحق قبيل مبعث محمد ﷺ .

مع التواضع والقدرة على الانسلاخ من سلطة البيئة والهوى .. وهذه كلها صفات النبوة ، فالكذابون لا يصدر عنهم الا مبادىء ساقطة من جنس ما جبلت عليه نفوسهم(٨٧) ، وقد اتى النبى بأكمل المبادىء الخلقية ، واحتمل فى سبيلها كل ضروب(٨٨) الأذى التى لا يمكن ان يحتملها انسان ذو اغراض قريبة المنال .

* * *

٧ ـ هل محمد ذو مبادىء اباحية حين يعدد الزوجات ؟

هكذا قال فوستر ، ويكذبه ان محمدا ﷺ لم يترك الناس أحرارا فيما يفعلون ويجترحون(٨٩) من الشهوات حتى يقال : انه ذو مبادىء اباحية ، وانما جاء برسالة قيدت الناس فى اشباع الشهوات . فحرمت الخمور بكافة انواعها . وحرمت الزنا بكل صوره وسدت الذرائع اليه(٩٠) ، وقيدت عدد الزوجات الذى كان مباحا اباحة مطلقة حتى كان الرجل يتزوج عشرات ..

ومن عجب : ان موسى عليه السلام كانت شريعته تبيح تعدد الزوجات فلا يعيبه المستشرقون ، بينما يضيقون بمحمد ﷺ وبدينه ، وهو وموسى وكتاباهما من مشكاة واحدة(٩١) ، وقد اعترف شوبنهاور بفضل العقد الشرعى الاسلامى لأكثر من زوجة ، واضطرت فرنسا لاصدار قانون ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ بفرض نفقة شرعية للولد غير الشرعى ، وصدرت قوانين العلاقات الواقعية ، او « زواج الواقع » أو « الخدانة »(٩٢) ، وأصدر رينيه روديير كتابه « زواج الواقع أمام القانون الفرنسى » ونشر عام ١٩٦٠ وهو من اعمال جمعية هنرى كابيتان ويدل على المأساة التى تنشأ عن تقييد الزواج .

---

(٨٧) طبعت .
(٨٨) صنوف .
(٨٩) يقترفون ويفعلون .
(٩٠) الأسباب المؤدية .
(٩١) مصدر واحد ، واصل المشكاة الكوة التى لا منفذ لها .
(٩٢) الصداقة والمعاشرة الزوجية بدون زواج .

ويعترف الرحالة الغربيون بأن تعدد الزوجات بين المسلمين من الوجهة العملية اقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحـدة · وليس هـذا بغريب على الفطـرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم ·

وقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينزبرج » و « سترمارك » ، أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان النظام المتبع عند الشعوب المتخلفة هو نظام الزوجة الواحدة ، ويرجع الاقتصار على زوجة واحدة فيها الى تقاليد لا تتصل بالدين ·

وقد قالت السيدة « غوردون » الانجليزية : انها بملاحظتها أحـوال البلاد الشرقية التى يتعدد فيها الزوجات رأت أن هذا التعدد أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافـق فيصعب على النسـاء الاعتماد على انفسهن فى تحصيل الرزق والأخذ بأسباب العيش ، وهذه ضرورة كبرى يخول معها تعدد الزوجات · وهذا هو ما لاحظه جميـع الرحالة الغربيين مثل « جيرالدى نيرفال » و « الليدى موجان » ·

وقد اثبت علم الاحصاء ان النسـاء غالبا أكثر عددا من الرجال مما يقتضى ان يكون لكل رجل أكثر من زوجة · وبما أنه ليس كل رجل قادرا على الزواج · والقادر على الزواج قد لا يستطيع الزواج بأكثر من واحدة فان اباحة التعدد للقادر عليه ضرورة تفرضها العدالة الاجتماعية حتى لا تحرم المرأة من حقها فى الاستمتاع بالحياة ·

(أ) ففى الحـروب يكون القتلى من الرجال أكثر من النسـاء بنسـبة ١ : ٤ ·

(ب) وحوادث المصانع والصراع على الرزق يكون ضحاياها من الرجال أكثر من النسـاء ·

(جـ) وأمراض الطفولة يموت بسـببها ذكور أكثر من الاناث فى المرحلة ما بين سـاعة الميلاد وأوائل مراحل الشباب فتزيد بهذا نسـبة الاناث على نسـبة الذكور ١٪ ·

(د) وقد نشرت «المختار» فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ مقالا للأستاذ « سيليج جرينبرج » جاء فيه : « ان مكتب التعداد بالولايات المتحدة يتنبأ بأن النساء سيرتفع عددهن فى أمريكا بمعدل مليون كل عشر سنوات ، وان الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : ان لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد فى الرجال : اما تعدد الزوجات . او ايجاد طريقة ما لاطالة اعمار الرجال . هذا فضلا عن أن الزوجة قد تصاب بأمراض تجعلها غير مرضية عند زوجها كأن لا تنجب او لا تطيق الزواج او تصير شوهاء . فطلاقها للزواج بأخرى يضيرها(٩٣) . وقد تسوء المعاشرة لأسباب نفسية أو خلقية أو اقتصادية فيكون الزواج بأخرى وسيلة لاستصلاح الأولى .

والذى يتأمل تعدد الزوجات فى حياة النبى يفاجأ بأنه عليه الصلاة والسلام كان ذا زوجة واحدة فى حياته الأولى حتى الرابعة والخمسين من عمره ، ثم أخذ يعدد الزوجات فى الفترة ما بين السنة الثالثة للهجرة والثامنة . وهى الفترة التى تواصلت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين . وفيها اختل التوازن العددى بين الذكور والاناث فى مجتمع المسلمين بالمدينة . واصبح من الواجب رعاية الأرامل واليتامى الذين فقدوا عائليهم . فالتعدد اذن واجب اجتماعى على الرجال يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا تجدنه كالأرامل والمطلقات .

والعجيب أن انكار تعدد الزوجات والدعوة الى تفضيل العزوبة والتخلص من تبعات الزواج اكتفاء بالمتعة الخبيثة ـ التى وفرتها مدنية العصر ـ قد تأثر بها المجتمع المسلم فى ظل دعاية الاحتلال وحكمه لمصر ـ دون المجتمع المسيحى فى مصر . اذ تدل الاحصائيات على أن نسبة المتزوجات من النساء المسلمات فى مصر قد هبطت من ٩١٥ فى الألف سنة ١٩٠٧ الى ٨٨٥ فى الألف عام ١٩٢٧ بينما ارتفعت نسبة المتزوجات من النساء المسيحيات من ٨٩٤ فى الألف عام ١٩٠٧ الى ٩٠٥ فى الألف عام ١٩٢٧ . وكانت النتيجة أن هبطت نسبة المسلمين من السكان من

---

(٩٣) يضير : يضر .

٨ر٩١٪ فى سنة ١٩٠٧ الى ٢ر٩١٪ فى سنة ١٩٢٧ . وفى سنة ١٩٧٢ عقد البابا الأنبا شنودة مجتمعا بمصر واصدر منشورا بقرارات المجتمع وقد جاء فيه ان المسيحيين بمصر قد تضاعف عددهم فبلغوا ثمانية ملايين وهـذا يقتضى أن يكون تمثيلهم فى الوزارة بثمانيه وزراء تبعا لنسبتهم العددية طبقا لوصايا الكنيسة بكثرة الانجاب وتشجيع الزواج وترك العزوبة خلافا لسياستهم فى ترويج الدعوة الى تحديد النسل بين المسلمين والدعوة الى منع تعدد الزوجات . بينما نسبة المسيحيين الى المسلمين فى الواقع ٦٪ وانما هى اشاعة كاذبة بكثرة عددهم .

وقد أصبح التخلص من الرهبنة فى المسيحية والدعوة الى اباحة زواج القساوسة بل والرهبان أمرا صكت قوة الدعوة اليه الآذان ، بناء على ان المصلحة الاجتماعية والسياسية للكنيسة هى فى التكاثر والثروة البشرية . وعلى ان الانجيل ليس فيه نص صريح على تحـريم أو كراهية الزواج أو التعدد .

● **ماذا ينجم(٩٤) عن تحريم تعدد الزوجات ؟**

تندفع المرأة التى لا زوج لها ـ لاستحالة وجود زوج واحد لكل امرأة النساء بسبب كثرتهن ـ الى الدعارة . وستتفشى ظاهرة العوانس(٩٥) بين النساء فى المجتمع مع ما يصحب هذه الظاهرة من عقد نفسية تنجم عنها أخطار اجتماعية جمة(٩٦) .

* * *

٨ ـ التلقى عن الكتابيين :

قال مستر فوستر : «ان محمدا قد تلقف دينه من أفواه الكتابيين الذين كانوا فى الجزيرة ، وهو لم يقابل الا السذج الأميين من اليهود والنصارى فلم يحصل منهم الا ما هم أهل للافضاء به من الأوهام حتى عجزوا عن تفهيمه حقيقة المسيحية » .

---

(٩٤) ينجم : ينشأ .

(٩٥) العانس : الفتاة التى لم تتزوج حتى أمست عجوزا .

(٩٦) كثيرة .

الجـواب :

ان النجاح العظيم للنبى ﷺ لا يتصور أن يكون قائما على تصيد معلومات ناقصة وخرافية من عوام الكتابيين . والا فقد ادعى النبوة آخرون افتضـح أمر كذبهم ، وبعضهم كان يجمـع الى أدق ضروب الختل(٩٧) ثقـافة علمية عالية .

ثم ان نجاح الدعوات الدينية لا يكفى للوصـول اليه اقامة الدليل القاطع على حقائقها فحسب ، ولكن يجب أن يصحب هذا سمو خلقى عظيم وتأثير روحانى كبير . وهكذا كان لمحمد ﷺ النصيب الأوفى من السمو والتأثير . والله لا يؤيد بالنجاح متنبئا(٩٨) كذابا والا بطـلت حجته ـ سبحانه ـ على عباده الذين يخالفون تعاليمه .

على أن التوراة والانجيل لـما يكونا منشورين بحيث يستطيع عامة اليهود والنصارى أن يحفظوا منهما شـيئا . فان أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أى بعد موت محمد ﷺ بمـا يقرب من ثلاثة قرون . بينما أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين كما قال بودلى . ثم قال : وما روى عن أن ورقة ابن نوفل كان لديه ترجمة للتوراة لا يكفى لاقامة شبهة تلقى محمد ﷺ عنها شيئا . لأن ورقة توفى قبل أن يبدأ محمد عليه الصلاة والسلام فى تدوين ما أوحى به جبريل اليه ..

... ثم اننا الآن بعـد عصر الطباعة لا نرى النصـارى واليهود يحفظون شـيئا من كتابهم المقدس لأن أسلوبه لا يستساغ حفظه .

* * *

٩ ـ التكرار والاقناع :

قال فى كتابه « تاريخ حياة محمد » : ان سورة التكاثر لا مفهوم لها ، وفيها تكرار يستعين به محمد على الاقناع لفقده الحجة المنطقية . وهكذا الأمر فى قولـه تعـالى : « **ولقد ذرانـا لجهنم كثيرا من الجن والانس ،**

---

(٩٧) الختل والختلان : الخداع .
(٩٨) مدعى النبوة .

لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »(٩٩) ٠

وشبهة الكاتب تدل على جهله بطبيعة أساليب اللغة العربية وبعلم النفس أيضا ، وعن جهله أسباب نزول القرآن ٠ فقد نزلت سورة التكاثر للرد على بنى عبد مناف وبنى سهم حين تباهوا بالكثرة ، فذهبوا الى المقابر يذكرون مفاخر من ماتوا ودفنوا بها من كبار القوم ، كما يذكرون مفاخر الكثرة الباقية فى عالم الأحياء ، فنزلت الآية « **ألهاكم التكاثر ٠ حتى زرتم المقابر** »(١٠٠) ثم ذكر المصير الذى يجب أن يهتموا به ، وهو الوقاية من النار بالتحرز عن الأسباب التى تؤدى اليها ، والقيام بواجب الشكر لله على آلائه ونعيمه ونعمه التى تفضل بها عليهم فقال : « **كلا سوف تعلمون ٠ ثم كلا سوف تعلمون ٠ كلا لو تعلمون علم اليقين ٠ لترون الجحيم ٠ ثم لترونها عين اليقين ٠ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** »(١٠١) ٠

وتكرار « **كلا سوف تعلمون** » للتهويل والتأكيد ، فله دلالته النفسية والمعنوية(١٠٢) ٠

وأما قوله تعالى « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** »(١٠٣) الآية ، فغاية فى القوة وحسن الأداء ، فهى تهديد يوقظ الله به الانسانية المتحجرة فى حنايا صدور السامعين ، وبخاصة العرب الدين يرهبون الجن ، ويرهبون الكثرة المتكاثرة من الناس ، فليزل الرهبة من الله فى قلوب البدو والحضر معا ٠٠ ذكر قهره سبحانه لمن هم موضع رهبتهم فقال : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** » فان القادر على الأخذ بنواصى كثير من الجن والكثرة من الناس قادر على من دونهم ٠ وبهذا المنطق يقدم الدليل الحسى والعقلى والوجدانى لمن تحدثه نفسه بمعصية الله ـ على انه مأخوذ بقهر الله ٠

* * *

(٩٩) يفقه : يفهم ويعى ، والأنعام : حيوان البقر والابل والغنم ـ والآية من سورة الأعراف : ١٧٩ ٠

(١٠٠) التكاثر : ١ ، ٢ ٠ (١٠١) التكاثر : ٣ ـ ٨

(١٠٢) انظر مقال القاسمى فى التكرار بهذا الكتاب

(١٠٣) الأعراف : ١٧٩ ٠

● **انكار أن النبى خاتم المرسلين :**

انكر بعض المستشرقين أن سيدنا محمدا ﷺ خاتم المرسلين وفسروا قوله تعالى : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** »(١٠٤) بأن الخاتم تعبير مجازى يراد به الحلية فهو أفضـلهم وليس آخرهم . وقد أجاب عن هذا العلامة « خ . **كمال الدين** » فى الفصل الثانى من كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » فقال ما خلاصته :

١ ـ الانسان مركب من جسم وروح . وقد تكفل الله تعالى بغذاء الأرواح كما تكفل بغذاء الأبدان . واذا كان الخالق جل وعلا لم يفرق بين الناس فى توزيع الأرزاق التى تتطلبها الأبدان . فهل يعقل أن يفرق فى الأرزاق التى تتطلبها الأرواح ؟ واذا كانت دعوة عيسى عليه السلام لم تصل الى أقطار العالم الأربعة . فهل يتصور العقل أن الله تعالى الذى يرزق الناس جميعا يضن بالغذاء الروحى على ملايين البشر الذين لم تبلغهم دعوة المسيح ؟ كلا . بل المعقول أنه جلت حكمته ، يرسل رسلا آخرين ليبلغوا رسالاته للناس ، فبعث محمدا ﷺ وحفظ كتابه من التحريف حتى أصبح فى امكان كل طالب أن يجده مشروحا مفسرا مشفوعا بالصور التطبيقية له من أعمال الرسول وصحابته .

٢ ـ كل ما وصل للناس عن المرسلين انما كان ينتقل بطريق الأفواه وانسماع ، مما أفسح المجال للتحريف والتبديل فيها ، وكانت النتيجة أن الأجيال المتتابعة تلقت دينا جديدا يختلف كل الاختلاف عما جاء به المرسل ، واستطيع أن أقرر أن المسيحية بالذات دين يختلف عما جاء به عيسى عليه السلام . وقد أدى النزر اليسير الذى دونه أصحاب الرسل الى مشكلة أخرى . وهى أن الديانات القديمة أصبحت لا تفى بمطالب الزمن . مما اضطر الناس الى الاجتهاد فى كثير من الشئون الحيوية ،

---

(١٠٤) الأحزاب : ٤٠ .

ولعل الدين المسيحى خير شاهد على هـذه القضية . فاننا اذا صرفنا النظر عن الجانب الغامض من العقائد التى لا يقرها العقل فى هـذا الدين ، ألفينا (١٠٥) أن المواعظ التى تنسب الى عيسى عليه السلام وأقواله الأخرى ، لا تفى بالغرض ، ولا تشفى الغليل ، وخلاصة ما أثر عنـه ـ حسـبما دونه أصحابه ـ أن المسيحية دين يقوم على المحبة والشفقة . وعلى مبادىء مثالية لا يمكن تطبيقها من الناحية العملية . وليس هذا كل ما فى الأمر كما يقول « أرنولد بنت » ـ بحق ، فمبادىء المسيحية لا تناسب الا حياة الرهبان الذين يعيشون بمعزل عن الناس ، ولا تتفق مع مقتضيات الحياة الاجتماعية والوطنية والدولية . وفوق ذلك يوجد ضرب من التناقض بين الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام كالتناقض الصارخ فى استعمال السيف ، وما سجل من أفعاله التى لا تبين المراد من أقواله . وأساس العلة فى ذلك كله أن تلاميذه وغيرهم من معاصريه لم يدونوا لنا سيرته كاملة ، وما حدث فى حق عيسى عليه السلام حدث فى حق غيره من الأنبياء ، اذا استثنينا محمدا عليه الصلاة والسلام الذى ـ دون مغالاة ـ أعرفه من سيرته المفصلة أكثر مما أعرف أبوى فسجل أقواله وأفعاله كامل غير منقوص . وسنته القولية والفعلية يتمم بعضها بعضا ، وكأن كل مطلب من المطالب الروحية قد قدر وعمل حسابه . ولا يسعنا ازاء قلة ما أثر عن الأنبياء الا أن نقول : انه لولا محمد ﷺ ما استطعنـا أن نفهم قدر النبوة . اذ لو كانت وظيفة النبى مقصورة على القول دون العمل .. لمـا كان هناك معنى للرسالة الالهية ، لأننا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس نفسها ممن لم يدع أنه مرسل من عند الله ، فالأقوال اذا لم تقرن بالأفعال لا يمكن أن تكون باعثا على الهداية » .

أقول : وما قاله كمال الدين حق ، غير أننا لا نسلم له القول بأننا كنا نستطيع أن نتعلم هذه الدروس الموحى بها من السماء من غير المسلمين.

٣ ـ كما أن عيسى عليه السلام ـ آخر أنبياء بنى اسرائيل ـ ولم تتهيأ له الأسباب لظهور مقتضيات الأخلاق جميعا كما تهيأت للنبى ﷺ .

---

(١٠٥) أى وجدنا .

فالمسيح لم يتزوج حتى نقتدى به فى حياتنا الزوجية . ولم يتول سياسة البشر وحكم الناس حتى نتأسى به فى هذا . فكان محمد رسول الله هو النموذج المتكامل الذى يحتاج اليه البشر . وكان القرآن الكريم بيانا وافيا يحتوى على ما يفى مطالب البشرية الخلقية والروحية فنزول وحى جديد ـ بعد محمد ﷺ ـ والحالة هذه ـ يعد ضربا من التكرار والعبث .

٤ ـ وأخيرا ان الدين يأتى ليمهد الطريق أمام الانسان للترقى من البشرية الى عالم القدس . والسمو من مرتبة الحيوان الى مرتبة الروحانية. واذا تقرر ذلك سهل علينا أن نفهم نهائيا الوحى الالهى . اذ المعروف أن هناك طرقا عدة بين المرتبتين ، منها ما هو طويل ، ومنها ما هو معوج . ولكن لا شك أن منها ما يعد أقصرها جميعا . ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين . وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على الدين الذى جاء به « الصراط المستقيم » ومعناه الحرفى : الطريق المستقيم .

فاذن : علم أن الطريق الذى يرسمه الوحى الالهى لهداية البشر لا بد أن يكون أقصر الطرق ، وأن الطريق المستقيم لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل منه » .

أقول : اذا علم ذلك : كان القول بأن نبيا ما ... بعثه الله صراطا مستقيما قضية يؤيدها العقل ، ومن ثم تكون شريعة هذا النبى هى آخر الشرائع . فأنت ترى أن المسألة كلها انما تدور حول اعتبار واحد . وهو هل الطريق الذى يدعو اليه هذا النبى هو الطريق المستقيم ؟ وهذا يتضمن التسليم بأنه آخر الأنبياء . وفى هذا أستطيع أن أقول ـ وأنا مطمئن ـ : ان محمدا ﷺ هو آخر الأنبياء ، وهو يقف فى المقدمة . يشرف بنظره على كل القرون ، وهو نبى الزمان كله ، ونبى كافة الشعوب على اختلاف درجاتها ثقافة وعلما . وأكبر دليل على ذلك أن العالم الآن مقبل على الأخذ بالمبادىء الحقة التى نادى بها فى زمانه . فلتقل الدكتورة « بيزانت » ما شاءت أن تقول به ، من أن الوقت قد حان لظهور « نجم الشرق » . فان أنبياء الشرق لم يكونوا عالة قط على من سواهم فى الأمور الدينية ،

ولم يكونوا قط تحت وصاية غيرهم فى التربيـة الدينية . فهل للدكتورة « بيزانت » أن تدلنا على بعض الحقائق الجديدة التى سيأتى بها الذى هـو فى حماها مما لم يأت به الأوائل ؟ ..

٥ ـ ولقد كان غرض الديانات السابقة على الاسلام هو تخليص البشر من الخطيئة واسترضاء الله بالقرابين البشرية وغيرها ، أو بالوسـطاء ، ولم يكن عيسى عليه السلام هو ابن الله الوحيد الذى جاء ليغسـل بدمه خطايا البشر . وقد حوكم لأنه اتهم باثارة الفتن والقلاقل فكم من شـخص أعدم بهذه التهمة ، فليرفع الدكتور « زويمر » عقيرته ما شاء أن يرفع . زاعما أن المسيحية انفردت بتقديم الدليل على هذا النوع الغريب من الحب الالهى . فانه انما يدل على جهله . وأكبر الظن أنه يكتم الحق .. ويعرف أن الوثنية كان فيها عدة ممن زعموهم أبناء الله ، أرسلهم الأب ليقدموا حياتهم فداء للانسانية . وكان باخوس واحدا منهم ، وهو أول من قال : انه ألف العالم وباؤه ، وأنه مخلص البشرية ، وقد وضعته أم عذراء فى ٢٥ ديسمبر ، وضحى بحياته فى يوم الجمعة السابق على أحد الفصـح ، وقام فى ذلك اليوم المشهود . وقد نقل القديس بولس ، ومن جاء بعـده قصة الآلام ، بحذافيرها(١٠٦) عن هؤلاء .

ومن اعجاز القرآن أن كشف عن هذه الحقيقة التاريخية الثابتة فقال عن النصارى : « **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون** »(١٠٧) .

وكان الاعتقاد السائد ـ خطأ ـ أن الانسان ولد متلبسا بالخطيئة ، وأن الاله المتجسد هو الذى يكفرها بيديه . فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم قرر : أن الدين لا يقصد الى مجرد انتشال الانسان من الوهدة ، واقالته من العثرة ، وانما يريد به السمو الى الذروة » .

ولقد شبع الناس من كباش الفداء تلك . والذى تتقبله عقولهم هـو

---

(١٠٦) بتمامها وأصل الحذفور كعصفور : الجانب

(١٠٧) يحاكون ويشابهون ـ والآية من سورة التوبة : ٣٠ .

ان يكون ارتقاء الانسان من الحيوانية الى الروحانية هو المبدأ الأسمى الذى يجدر أن تموت فى سبيله الشهداء ، وقد كانت رسالة محمد ﷺ تفصيلا لوسائل هـذا الارتقاء الذى هو خاتمة الغايات النبيلة التى تستهدفها الرسالات وليس وراءها وراء ٠

وهذا الارتقاء هو التسامى بالنفس الانسانية بضبط الغرائز ، والتخلق بالصفات الكريمة التى وصف الله بها نفسه ودعانا الى التحلى بها نبيه محمد ﷺ بصورة مشرقة ليست كالصورة التى رسمها لله رجال الأديان السابقة ، فليس الها غاضبا قاسيا كاله اليهود ، وليس الها أبله يقتل أفضل أبنائه ليخلص بدمه غيره من أبنائه الأشرار ، وانما الله هو الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ٠

« واذا صرفنا النظر عن جميع الاعتبارات المتعلقة بعدم صحة الكتب المقدسة ما عدا القرآن ، وآمنا بأنها صحيحة ـ لم نجد فيها كبير فائدة ٠ اذ أنها لا تدلنا على جميع الصفات الالهية التى نقرؤها فى كتاب الكون ٠ واذا كان القرآن هو الكتاب الزاخر بذكر الله وصفاته ، والدال على كيفية التخلق بأخلاقه ٠ أفلا يكون هو الكتاب الوحيد الذى يحقق الغرض من الوحى الالهى »(١٠٨) ويستغنى به عما سواه ؟ ٠٠

وللأول مرة فى التاريخ يلغى الاسلام الوساطة بين العبد وربه ، لأن الاعتقاد فى الوساطة يضعف الشعور بالمسئولية ، ويقضى على روح الاعتماد على النفس ، وهو أثر من آثار الوثنية لم يخل منه دين سماوى فى أخريات أيامه ، وجاء الاسلام ليخلص البشرية منه « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان** »(١٠٩) ٠ « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** »(١١٠) ٠ وهذا أعظم مظهر لتحرير البشر من العبودية لغير الله الواحد الأحد ٠

٦ ـ **الناس يتطلعون الى دين واحد ، وهذا الدين العالمى لا بد أن**

---

(١٠٨) المثل الأعلى فى الأنبياء ، خ ٠ كمال الدين ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١٣٩ ٠

(١٠٩) البقرة : ١٨٦ ٠ (١١٠) العنكبوت : ٦٩ ٠

يتضمن الاجابة عن كل الأسئلة المطروحة فى المسائل المختلف عليها بين كافة الديانات ٠٠ والاسلام وحده هو الذى تعرض للاجابة عن كل مشكلة برأى مقنع وحاسم ٠ وخلاف غيره ، فالمسيحية لم يتعرض كتابها المقدس لمشكلة تناسخ الأرواح بكلمة ٠ فهل تصلح مع هذا أن تكون ديانة عالمية ؟

والدين العالمى شرطه العمل على شجب الخلاف حول الرسل ، والاسلام ـ وحده ـ هو الذى جاء بهذا « **والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** »(١١١) ٠ والدين العالمى يكفل للمرء حاجته المادية والروحية باعتدال ، والاسلام ـ دون غيره ـ هو الذى وفرت مبادئه المبدأ الفارسى القائل : أيديهم فى الدنيا وقلوبهم مع الله (١١٢) ٠

٧ ـ واضاف الأستاذ زكريا هاشم الى ذلك:أن جميع الدعوات والنبوات قبل الاسلام قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الانسانية العامة ، وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير ٠

فنبوة بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ٠ تنعزل بحاضرها وعموم مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره ، والتكفير عن سيئاته ، والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ٠ ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ، ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ، ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر فى عبادة اله واحد هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها » ٠

---

(١١١) البقرة : ٢٨٥ ٠

(١١٢) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ١٧٦ ٠

فلما جاءت نبوة التكليف صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبـوات، لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول . وتحضره آيات الله لقوم يعقلون « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الريـاح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** »(١١٣) .

وان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون ـ قد اختتم سلطان الأحبار والقادة ، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات » ، والمنجمين الذين كانوا فى مقدمة جيوش بنى اسرائيل كما فى سفر الأيام الأول ، والعرافين الذين كان قومهم يختبرونهم بمعرفة الغيب كصموئيل(١١٤) .

« **فلا** يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين ، او ليطيع الأحبـار المتسلطين بسلطان المـال والدين : « **قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** »(١١٥) ... و « **قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين** .. »(١١٦) .

« فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم ، او طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله او يلغيـه ، ويوجب على المتعلم ان يتبين من يسأل ، وهو مسئول عما يفعل « **وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(١١٧) . فاذا سمى ختام النبوة باسم الحق فى تاريخ الانسان ، فاسم الحق انه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة . قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون .

* * *

---

(١١٣) البقرة : ١٦٤

(١١٤) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٦٤ ، ٦٦

(١١٥) النسـاء : ٩٧ (١١٦) سبأ : ٣٢ (١١٧) النحل : ٤٣

● **دعوى استمرار النبوات :**

ومن عبث الجهالة ٠ أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار فى عصر العلم ٠ فلا يفهم منه الا انه حكر الأثرة يغلقه النبى على من بعده ٠

ان الحكر ـ الذى يزعمه خصوم الاسلام كالبهائيين ـ صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طبيعة منقادة بين يديه ، فان جاز فى حقه هذا الحكر المغتصب ٠ فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله ، وان يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته عليه ؟(١١٨) ٠

ان العقل البشرى بلغ تطوره منذ أربعة عشر قرنا ٠ عند مبعث رسول الله ﷺ ، وان تفتح العقلية الأوروبية بأقصى ما أمكن الفلاسفة أن يدركوه الآن ليشير الى أهداف العلم وغاياته فلا تخرج عن المبادىء التى جاء بها محمد ﷺ ، ولهذا كانت رسالته خاتمة الرسالات من وجهين :

الوجه الأول : أنها عامة فى الزمن تغطى حاجته المستقبلة ، اذ أننا لم نجد فى عصرنا خيرا من الاسلام ٠ فكل متنبىء الآن كاذب ، لأنه أعجز عن أن يأتينا بجديد خير مما أتانا به محمد ﷺ أو مثله ٠

والوجه الثانى : فى أنها كانت طورا لما سبقها من الرسالات يشبه الذروة فكانت خاتمة للرسالات السابقة ٠

لقد وضع الاسلام أصولا عامة يتجه اليها فلاسفة العالم الآن ٠ وبهذا كان الاسلام هو التعبير عن حاجة الانسانية ، والملتقى العالمى الذى تتجه اليه البشرية دون حاجة الى رسول أو رسالة غير الاسلام ورسوله ، وهذه الأصول كما قال المرحوم محمد فريد وجدى هى :

١ ـ زوال آثار الوراثات الدينية والتحرر العصرى منها ٠

٢ ـ انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة ٠

٣ ـ قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى ٠

---

(١١٨) المستشرقون والاسلام لزكريا هاشم ص ١١ ـ ١٢

٤ ـ قبول كل عقيدة تسلم من النقد ، وتنهض بها حجة .

٥ ـ الميل الى ايجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم والتى تجعل منها شيعا .

٦ ـ الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، دون اعتداد برأى طائفة من الطوائف ، أو فرد من الأفراد .. وهذه أمور تنبىء بأن المستقبل للاسلام(١١٩) .

* * *

(١١٩) مجلة الأزهر ـ المجلد ٨ ص ١٤٩

obeikandl.com

خاتمة

لقد أمطنا اللثام فى الصفحات السابقة عن أغراض المستشرقين ، واستبان لنا أن الاستشراق عمل صليبى هو الوجه الآخر للحروب الصليبية .. يمكن أن نسميها الحرب النفسية ، لأنها تحمل من أغراض الحرب النفسية تمزيق الوحدة القومية حول مفاهيم يستوى عند العدو أن تكون تافهة أو ذات بال . وتحمل من أغراض الحرب النفسية أيضا تشكيك المسلمين فى استمرار قدرة دينهم على مواجهة الحياة الصاعدة الزاحفة الى الأمام قدما . ويسلمهم هذا الى استشعارهم النقص والتفاهة والعجز عن مناهضة أعدائهم ، فيقنطون وكما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » ويفقدون الطريق الى المجد « **ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون** »(١) .

وقد رادت الكنيسة هذه الحركة لتستبقى بالعلوم الاسلامية الشرقية دماء المسيحية وهى تحتضر .

ولما كان البابا عند المسيحيين ملك جميع الملوك والرؤساء والممالك فى معتقدات المسيحيين فقد انصاع الملوك والرؤساء وكافة الساسة لأمره ، واحتضنوا حركة التبشير والاستشراق ، وما كان لملك الا ينصاع ، ومن قبله عرف كافة الملوك كيف وقف زميل لهم بين يدى البابا وقد أزاح عن نفسه الصلف الألمانى وتاج الملوك ، واكتسى ثوب المذلة والضراعة ليغفر له البابا الذى غضبت لغضبته رعيته عن بكرة أبيها ، فأمسى عرشه فى مهب الرياح .. وبعد تأب وتمنع أمر البابا أن يجثو الملك عاريا الا من ثياب خشنة قذرة من الخيش ، حاسر الرأس لا يغادر فناء الكنيسة الى ظل أو كن ان احمرت الشمس أو اكفهر الأفق أو أمطرت السماء أو قسا الزمهرير ، فلما قضى الملك الأجل أذن له البابا أن يشرف بلثم قدميه ويديه .

ومع ما للكنيسة من رهبة وسطوة فقد لوحت لهؤلاء بالمكاسب الضخمة

---

(١) الحجر : ٥٦

التى سيظفرون بها ويغنمونها من وراء الاستشراق والتبشير .. ان هؤلاء المستشرقين والمبشرين سيكونون العيون لهم فى أى بلد حلوا فيه والطابور الخامس . انهم حين يجدون نصارى يؤازرونهم سيهيئونهم لتقبل حماية دول الغرب ويكون شعار « حماية الأقليات » هو الذريعة للغزو المقدس . فان لم يكن للنصارى كيان أو وجود صنع عملاء يتنصرون .. فان عجزوا صنع عملاء يخدمون باسم الوطنية والتقدم والفكر المتحرر يكونون خلفاء مطيعين . واعوانا للغرب على كبح جماح العامة .

ورغبا ورهبا انصاع الملوك والساسة فكانت هذه الحركات الضخمة التى ازحنا عنها الستار ، وكانت لهم هذه المفتريات التى فضحنا شطرا منها . ولكن بقى أن نتساءل : أفى الافتراء على الاسلام حتى يمكن للمسيحية من أن تترعرع ـ خدمة للبشرية ، أو قربة الهية ، أم أن فى هذه المهاجمات للاسلام بل وفى التبشير بالمسيحية مخالفة للمسيحية ذاتها ؟

ان الطغيان الرأسمالى غير المشروع هو الآفة الاجتماعية التى تكمن وراء أبراج الكنيسة المسيحية . ووراء القباب الحصينة التى يتترس بها(٢) الآباء المسيحيون . ان هؤلاء الذين يحيون وراء الحصون المنيعة التى تضفى عليها أسماء شتى كالدير والمدرسة والمجمع والكنيسة والمكتبة ومركز الثقافة وجمعية القديس كذا .. كل هؤلاء انما ينقضون وراء هذه الحصون تعاليم المسيح . بما يغرقون فيه من متع الحياة التى جاء المسيح ليخلص الروح من أوزارها ، ولقد كشفت ثورات التحرير الفرنسية وغيرها عن طبيعة المبادىء التى تناقض الفطرة ، فكانت عظام الأطفال الرضع المقبورة فى جوار جدران الأديرة دليلا ماديا على ان البشر لا يمكن أن تحيلهم الحبرة والعمائم والطيالس الى ملائكة ـ دليلا على فساد المثل المسيحى القاتل « الأعزب رجل حالفه الحظ فلم يدهمه قطار الزواج » وعلى فساد فلسفة الرهبنة التى تحرم الزواج .. وعلى صدق الحقيقة الاسلامية التى تتمثل فى حديث محمد عليه الصلاة والسلام : « ما خلا رجل بامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما » وفى قوله « ان من سنتى النكاح ومن

---

(٢) يتترس : يتحصن ويحتمى .

رغب عن سنتى فليس منى » وقوله « شراركم عزابكم » وكأنه يريد أن يقول : رهبانكم . ولقد قالها فى الصورة المهذبة التى تليق بمقامه الكريم : « لا رهبانية فى الاسـلام » .

ان هؤلاء الآباء فى عملهم لنشر المسيحية لا يبتغون وجه الله ولا جنة المـأوى ، وانما يريدون باستبقاء الوجود المسيحى ان تبقى لهم الأوقاف والموارد المـالية الضخمة التى للكنائس ، فباسم الدين يعيشون على أنقاض الدين .. لم يدعوا ما لقيصر لقيصر . فهم المهيمنون على كل شئون القيصر .. يقدم لهم الولاء والعطاء ليباركوا له ما لعنه المسيح .. ملك الدنيا .. وطغيان المستبد الغاشم والمستعمر المعتدى .. انهم يباركونه ويتمتمون أمام السذج بمقالة الانجيل « لا يدخل فى ملكوت الله غنى » ، ويعلمون أن قيصر الذى باركوه لا يمكن أن يكون مباركا ، لأنه لا يدخل ملكوت الله . وهل هنالك اشقى وأتعس ممن طرد من رحمة الله ؟ ان هؤلاء الآباء يكذبون على قيصر حين يباركونه ، وهو يكذب عليهم حين يقبل أيديهم وأرجلهم ، أو يركع بين أيديهم ويمسح فى حركة تمثيلية أو هيستيرية الصلبان المدلاة من أعناقهم ، فيقبلها فى رهبة مزعومة .. لأنه يريد بما يصنعه كسب رضاهم ليكسب معه رضا الدهماء من العامة الذين لا يعرفون عن المسيح والمسيحية شيئا .. الا أنهم ولدوا مسيحيين . ولكنها المصالح المشتركة التى قوامها المـال والسيطرة ومتع الحياة جمعت بين الساسة والكنيسـة ، فكان الاستشراق والتبشير من اجل تحقيق المصالح المشتركة هـذه .

ومما هو جدير بالذكر ان نرى الآن حركة قساوسة العالم الثالث التى تستهدف اقامة اشتراكية أمريكية لاتينية وطنية . وهى تضم ٤٠٨ من قساوسة الكاثوليك فى الأرجنتين البالغ عددهم خمسمائة . ويسمى هؤلاء القساوسة : القساوسة الليبراليين (التحرريين)(٣) . أليس هذا خوضا فى سياسة دنيا الناس ، لا رياضة فى ملكوت الروح الذى جاء يدعو اليه السيد المسيح !!

---

(٣) الاهرام ١٩٧٢/٨/٢١

ان المسيح رفض ان يكون غير قومه ـ وهم الاسرائيليون ـ فى نطاق المسيحية ، رفض التبشير خارج بنى اسرائيل ·· ولكن زور تاريخه ، وورورت عليه ديانته حتى تخدم أغراض وشهوات ومطامع الآباء والملوك والرؤساء · بل ان المسيحية طورت لخدمة الدنيا ، لأنها فى طبيعتها لا تصلح لازدهار دنيا ، وانبات مدنية · فلقد مات المسيح ـ أو رفع كما هو رأى الجمهور ـ وماتت أو رفعت معه تعاليمه ، ولذا قال المسيحى الواعى المتحرر الفيلسوف « نيتشة » فى سخرية : « ان المسيحى الوحيد مات على الصليب » ·

ولا أدعك لهذا القول الذى تخاله غريبا فى حيرة ، ولكننى ابادر فاضع يدك على الدليل القاطع لكيلا تحتار ولتعرف كيف ينقض المبشرون قول الانجيل بعملية التبشير ·· بل وبادخال أوروبا فى دين المسيح ·· فلقد جاء فى انجيل « متى » الاصحاح ١٥ ما نصه :

« ثم خرج يسوع من هناك · وانصرف الى نواحى صور وصيداء · واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم · وصرخت اليه قائلة : ارحمنى ياسيد يا ابن داوود · ابنتى مجنونة جدا · فلم يجبها بكلمة · فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ·· فأتت وسجدت له قائلة : ياسيد ، أعنى · فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب الضالة · فقالت : نعم ياسيد ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها » ··

ولم يكن فى وسع بولس الرسول واخوانه أن يبشروا بمسيح منتظر بين اليونان والرومان يخلص بنى اسرائيل من شر الرومان الذين قتلوا المسيح ، فلا جرم أن تحولت الدعوة من اسرائيلية خاصة الى رومانية عالمية لهذه الضرورة التى لا محيص عنها ، واضيف الى انجيل متى الكذوبة : « اذهبوا وعلموا جميع الأمم » ·

ثم هى ضرورة الوثنية فى الامبراطورية دفعت الى استصلاحها بالمسيحية ، فهى مهما تكن كانت خيرا من الوثنية ·

فانتشار المسيحية اذن بعد هذا النص الواضح ، والتبشير بها مباشرة كما يفعل المبشرون المستعلنون ـ او بأسلوب خفى يأخذ ـ زيفا وزورا ـ صورة البحث العلمى كما يفعل المستشرقون ... ليس عملا يحبه المسيح وانما يناقضه ويضاده ، وانما هو اذن عمل لظروف سياسية اغتنمها الرومان .. ثم جرى مجراهم من وراءهم .. والدعوة الى المسيحية عمل سياسى بحت يناقض طبيعة المسيحية وما جاء فى الانجيل . لأنها دعوة جاءت لاستصلاح اليهود الجشعين فقط ـ بروحانية حاسمة لتصنع ما يشبه رد الفعل للمادية اليهودية الجشعة .

* * *

● **هل تصلح المسيحية للبشرية الآن ؟**

لقد كان للمسيحية عصرها ومجتمعها الخاصان وقد انتهيا .. فبقاؤها لا مفهوم له الا محادة الله والمسيح ، والاضرار بالجماعة البشرية . قال فيلسوف الاجتماع الشهير « جان جاك روسو » وهو مسيحى لحما ودما : « ويقولون لنا . انه اذا وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فانهم يؤلفون مجتمعا هو أكثر المجتمعات التى نتصورها كمالا . وأنا لا أرى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة .. وهى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعا بشريا . بل اقول ايضا : ان هذا المجتمع المزعوم لن يكون ـ رغم كل كماله ـ أقوى المجتمعات ولا أدومها .. فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاته » .

ثم قال : « انى اخطىء اذ اتحدث عن جمهورية مسيحية . فالكلمتان متناقضتان .. ان المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة ، وروحها ملائمة أكثر مما ينبغى للطغيان ، ويستغل الطغيان دائما هذه الحقيقة الصالحة : ان المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيدا »(٤) .

وما قاله « روسو » يصدقه الانجيل نفسه اذ يقول ما نصه : « قد سمعتم انه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما نا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل

---

(٤) العقد الاجتماعى لعبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحد فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم (متى : الاصحاح السادس) .

ثم قال روسو : « ان المسيحية ـ بدلا من أن تربط قلوب المواطنين بالدولة ـ تبعدها عنها ، باعتبارها من أشياء الدنيا ، ولست أعرف شيئا أكثر تناقضا مع الروح الاجتماعية من ذلك(٥) .

ان المسيحية دين روحانى تماما لا تشغله سوى أمور السماء وحدها . فوطن المسيحى ليس فى هذا العالم . وصحيح أنه يقوم بواجبه ، ولكنه يقوم به بعدم اهتمام ،وعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعهد به اليه أو فشله، فهو ـ اذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه ـ لا يهمه كثيرا ان يسوء الحال أو يحسن على الأرض ، فاذا ازدهرت الدولة فانه لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة ، ويخشى أن يفخر بمجد بلاده ، واذا هلكت الدولة بارك يد الرب التى ألقى ثقلها على شعبه » .

ثم قال : « ويجب فى هذه الحال أن يكون جميع المواطنين ـ بلا استثناء ـ مسيحيين صالحين على السواء ، حتى يسود السلام المجتمع ، ويعم التوافق . ولكن اذا وجد ـ لسوء الحظ ـ رجل واحد طموح ، مراء واحد كـ «أتلينا» مثلا،أو كروميل،فانه سيجد ـ بلا ريب ـ سوقا رائجة فى مواطنيه الأتقياء . فاذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه،ويستولى بخدعة ما على جزء من السلطة العامة فسرعان ما يصير صاحب سلطان ، وارادة الله أن يطاع » . ثم افترض سؤالا وأجاب عنه فقال : « ويقال لنا : ان الجنود المسيحيين ممتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من يثبت لى ذلك . أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية . وسيذكر لى البعض الحروب الصليبية ولكن ـ دون أن أناقش قيمة الصليبيين ـ أقول : انهم لم يكونوا مسيحيين .

---

(٥) النبى محمد لعبد الكريم الخطيب ص ٤٤٥ .

بـــل جنـــود القساوســـة ومواطنـــى الكنيســـة . فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطنـــا روحيا . ولســـت أدرى كيف جعلته الكنيسة زمنيا »(٦) (أى كيف استغلت ثمرة دماء وأرواح أزهقت من أجل الروح المتساميـــة عن أوحال المـــادة ليقام بأشلائها وعظامها بناء مجتمع مادى رخيص ؟!) . هذه كلمات أحد أساطين علم الاجتماع وأئمته .. وشهد شاهد من أهله ، ولا مطمع لى فى تجلية هذه الحقيقة أكثر مما قاله أهلوها .. ولكنا نقول : أما آن لمن يثقون بعقولهم ويعتزون بكرامتهم أن يكونوا مع الانصاف ويتشحوا بالشجاعة الأدبية فيقولون بكل قوة:آمنا بالله ربا وبمحمد نبيا واماما هاديا ، وبشريعته منهاجا قويما . ثم يكون ولاؤهم حقا وصدقا لله ولرسوله ولكتابه؟ ان كانوا كذلك فقد بدأوا طريق السعادة الذى أوله هنا وآخره فى مقعـــد صدق عند مليك مقتدر .

* * *

(٦) العقد الاجتماعى ـ ص ٢٣٥ وما بعدها .

obeikandl.com